الناسك

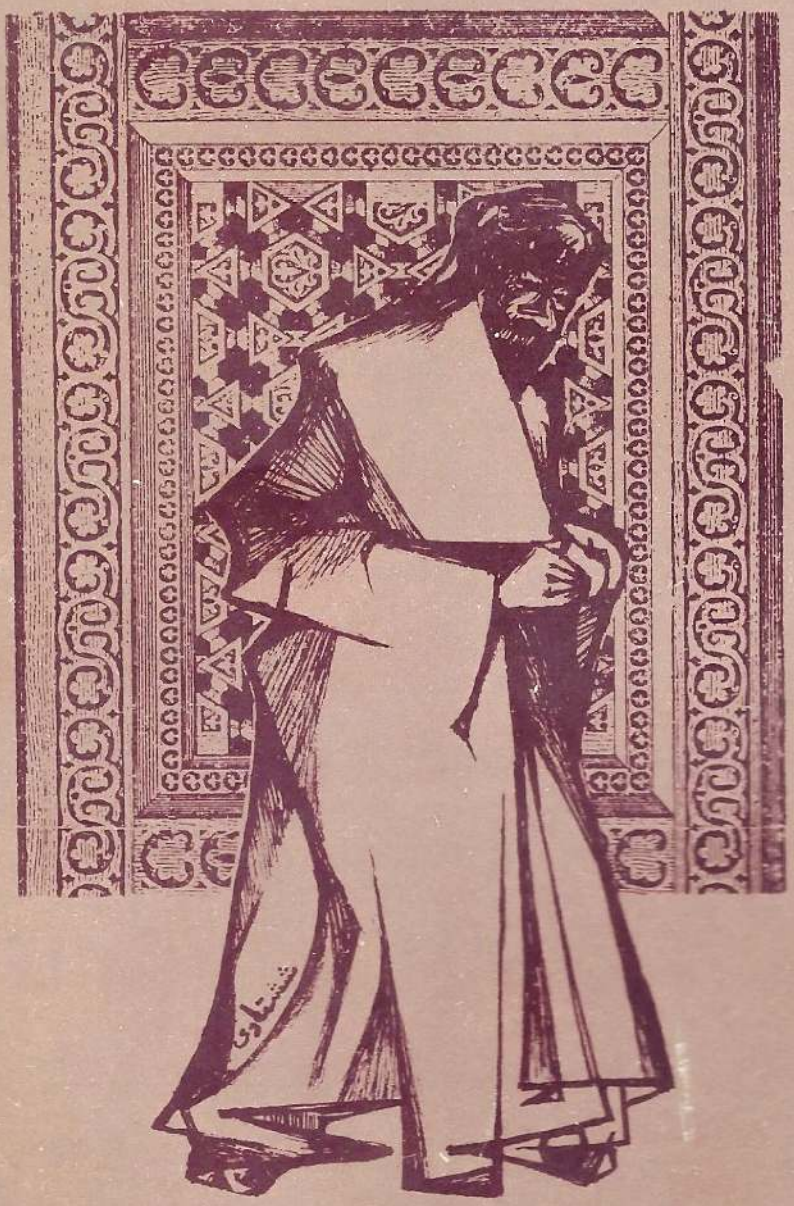

بقلم :

جميلة العلايلي

النّاسِك

بقلم
جميلة العلايلي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٢

الناسك

فى احدى ضواحى القاهرة التى سماها قدماء المصريين (آمون) أى عين شمس؛ تلك الضاحية الهادئة الحالمة التى تصور جلال السحر العميق الذى يتكلم بلغة الضوء المعطر الفواح ، صمت ينساب فى الأعماق المرهفة فيخيل اليك أنك تستمع الى أغانى الخلود فتستطيع أن تجزم بأنها بلد السحر والحنان وباعثة الحب والايمان. واذا كنت من علماء الآثار والباحثين لا تجد عجبا فى طابعها السحرى ، فعلى اديمها عاش قدماء المصريين فى أبهى عصورهم ، وسطع نجمها التاريخى مع بزوغ فجرهم ، ورويت رمالها بدماء الشهداء عندما اشتبك فى هذه المعركة عمرو بن العاص فى الحرب مع الروم وانتصر العرب انتصارا عظيما .

وفى هذه الضاحية التى كتب الله لها الخلود يقيم ـ الناسك ـ قرب جبل تما يسميه أهل عين شمس القدامى وان كان فى مظهره الحالى لم يعد جبلا شامخا بالمعنى الدقيق ... ولكن ما تبقى له من ارتفاع عن أراضيها الصحراوية النائية يشير الى هذه التسمية القديمة . يعيش فى كوخ متواضع يكفى حاجته فاذا مررت به وكان جالسا أمام كوخه راعك هذا الطيف الوديع . انه يبدو مشدودا الى تفكير عميق مطلق وتأمل لا محدود ، وقد تحسبه فى غفوة وماهو الا فى يقظة سارحة تجمع بين غفوة النفس المادية ويقظة الروح المتعطشة لتعرف ما وراء المجهول .. فهو لايمل الجلوس أمام كوخه ، ولايكف عن التطلع الى الترعة التى تجرى أمامه تلك الترعة التى شقتها سواعد البشر لرى الارض ، مادا بصره الى ما وراءها حيث منبعها الذى يسمونه النيل فيتخيله وهو ينساب فى خفة الهواء السارى منحدرا فى طريقه المرسوم له منذ الازل . ويغمغم الناسك وهو فى استغراقه مخاطبا نفسه .. أو يحسب الناس هذا المجرى مجموعة من قطرات الماء .. ؟ انه فى الواقع كلمات من آيات الله صاغها فى هذا الزلال أو لعله مجرى من ينبوع الخلد بعثه الله الى الأحياء رحمة ومعجزة من المعجزات الأبدية الناطقة بلسان الخالق على مدى الدهور .. يبلغ مسامعنا ترتيلا منغما سميناه موجا .. يعبر فى ايضاح عن أسمى القوانين البشرية التى يعانى الانسان جهدا جبارا فى سبيل تدعيمها .. وفى لحظه اطراق يتمنى أن يكون للناس من قوانين الله أوفر نصيب فلا يعرفون غير الرحمة والحق والبر والعدالة .

ان الناسك لا يؤمن بشيء غير ما يدركه على ضوء احساسه وايمانه فهو مثلا لا يؤمن بما يقوله علماء الجغرافيا بأن ـ النيل مجرى ينبوع ولدته الحرارة ، اذ لو كان الامر كذلك لجف المجرى عندما تهبط درجة الحرارة الى الصفر ؛ ولكنه يؤمن بأن النيل مجموعة من قطرات الرحمة الالهية بعثها الخالق ريا لكل ظامىء • باعث حياة لكل كائن • ويطول تأمله فى هـذا الشأن فتدمع عيناه ويغمغم •• أجل هى رحمة الله •• رحمـــة الله التى أجرت هذه المياه •• ورحمة الله التى تبعث الخضرة والانتعاش فى كل ذابل •• ويود وهو غارق فى تأمله أن يرتفع ويرتفع ليقترب من الله •• ثم لا يلبث حتى يسخر من نفسه متمتما •• ومتى كانت مسافات الارتفـاع والانخفاض وسيطا الى الله ؟ ان الله تحت آخر كل طبقة من طبقات الارض وفى أعلا كل سماء من السماوات العلا •• وقد يضطر أحيانا أن يمشى على مقربة من كوخه أو بعيدا عنه، فاذا لاح عن قرب أو بعد بدا جسم هزيل ضئيل يستره رداء خشن نسج من الصوف وقد ترك لحيتـــــه تثبت عدد السنين الطوال التى مرت من عمره حافلة بالاسى المرسوم على غضون وجهه وكأن احزانه سطرت هذا السواد الذى يحيط بعينيه رغم النور الذى يشع منهما معبرا بوضوح عن ايمان ثابت ويقين راسخ •

وها هو ذا جالس يفكر فى ماضيه البعيد وحاضره القريب ومستقبله المجهول، تتلاعب بذهنه أحزان الماضى فيقع فريسة لانفعالاتها ويرفع، بصره الى السماء الصافية ليتأملها تأمل الصوفى فاذا به يخرج من آلام نفسه الى دنيا رحيبة شاعرا بأن قوة خفية مست صدره فى لطف وسحر منبعثة من أعماق ايمانه القوى ، وسرعان مايهدأ ويخشع ويركع لله شكرا على ما أولاه من نعم وفضل أبرزها قدرته على اكتساح آلامه ومغالبة أحزانه؛ ويسخر من نفسه متسائلا : لماذا أسميها القدر الذى أخضع له مستسلما ؟ لماذا أحبس صدرى على ما لايسر ليظل صدرى ميدانا للحرب بين الخير والشر •• انى سأكون فى النهاية خاضعا لأحد المتحاربين •• فاذا كنت بجـانب الخير سأكون هيكلا محطما، اذ التناحر سيسلبنى قواى ولايدعنى أخيرا الا هشيما لايملك من نفسه غير القدرة على التنفس، ولايملك من دنياه غير التافه الذى لايقيم بنيانا ؛ ثم يسخر من هذا الرأى أيضا ويدمدم•• وأى بنيان ارتجيه؟ حسبى ما يلقيه الله على بصيرتى من اشعاع ربانى يكفل لى الحياة الرضية الهادئة، ويقوم فى التو منتعشا كأن احساسا جديدا تنزل عليه ، وبدا كأنه بطل خرج من معركة حاسمة يزهو بانتصاره على هواجسه المظلمة ولا يسعه الا أن يسبح الله شاكرا مطمئن الضمير باسم اللمحات تعبر خلجـــاته عن سعادته الروحية وايمانه العميق مشغول الفكر بأمر لا يدركه غير الله ••

ويظل كذلك حتى يلمح الناس يغدون ويروحون ، ويجد نفسه يتسمع أصواتهم الصاخبة آنا والهادئة أحيانا مجذوبا لدنياهم جذبا يقصر أو يطول ، ثم تعاوده الثورة على نفسه وعلى الناس غاضا الطرف عن الجمال الساحر الذى يحيط به؛ والفتنة التى كان يكفى أن يمس سحرها الهادىء وجدانه فتكهرب احساسه فيتحول بتأثيرها من انسان معتزل الى انسان اجتماعى ٠

وفجأة يلمح سرب من الطيور ترفرف حواليه يجذب بعضها بعضا ويروقه هذا المشهد فيلاحقها حتى تختفى فى أوكارها ويخلو الفضاء الذى ملأته أنسا وبهجة منها ٠٠ ويذهب معها انفعاله الطارىء باسما بسمة لا تخلو من مرارة متمتما ٠٠ ما أشبهنى بالطير ٠٠ يملك الدنيا كلها ولا يملك شيئا ٠٠ يشدو لحنا شجيا ويضيع شدوه بين موجات الأثير ٠٠ هو ملك وأسير ٠٠ حر وعبد ، ملك عندما ينطلق فى فضاء الله اللامحدود وأسير عندما يقع فى يد صائد جائر ٠٠ فحياته كحياتى ٠٠٠ روح محررة طائرة ٠٠ وجسم معلق بالأرض ٠

ويمر فوق رأسه سرب من الطيور قد تكون عائدة أو لاحقة بها، ويقع من مناقيرها بعض بذور فوق رأسه فلا يكاد يتلمسها ويتأملها حتى يغمغم بصوت لا يسمعه غيره مخاطبا الطيور التى بعدت عن ناظريه ٠٠ هذه ثمرة شهية لاتوجد الا فى قصر عظيم ٠٠ انها بذور نادرة لا يجرؤ كائن على الحصول عليها من هناك الا اذا اغتصبها ولكن من يستطيع ؟ ان من يجرؤ على ذلك لابد أن يدفع رأسه ثمنا لها ٠٠ حتى ولو كان ثمنها قروشا معدودات ٠٠ ويرمى بالبذور بعيدا مرتجفا خائفا كأنه يخشى أن يراه أحد حراس القصر فيكون مصيره الهلاك حتما ٠٠ ويتمتم لنفسه ٠٠ هذه البذور حق مشروع للطيور ٠٠ وهى تلتقطها كلما أرادت ٠٠ أترى الطيور أكثر وعيا من الانسان وتقديرا لحقها الشرعى ٠٠ ان فى قصر العظيم ثمارا شهية تتوق نفسى اليها، فهل فى مقدورى أن أمد يدى اليها كلما أردت؟٠٠ ويكز على نواجذه كأنه يقاوم انفعالات طارئة ويغمغم: هبنى استطعت٠٠هل أفعل؟ وهبنى فعلت ٠٠ مامصيرى٠٠ السجن٠٠ ويلوح بيده فى الهواء ٠٠ مردفا: الطير أكثر جرأة وشجاعة منى ٠٠ ان الارض تشدنى بسلاسل عتيقة أورثنى اياها استسلامى لقانون جائر؛ ويعود الطير مرفرفا فيرمى اليه بعض البذور قائلا بصوت فيه انكسار ومذلة ٠ خذ طعامك أيها الطير فهو حلال لك ٠٠ انك لص شريف ٠٠ احل الله لك كل شىء لانك لا تحاول أن تحبس القوت عن غيرك أو تقيد الرزق بنفسك انك تأكل وتترك الآخرين يأكلون

.. هنيئا لك خلقك القويم انت الذى لم يعلموك مبادىء الخلق الكريم .. انك تعيش فى الدنيا قانعا بما يسد رمقك لان العدالة فى مملكة الطير لم يمسسها التضليل . فعش بعيدا عن الانسان ما استطعت أيها الطير لتظل بمنجاة عن جشعه وظلمه وغدره .. كم أغبطك أيها الطير لانك اسمى من الانسان الذى حبس نفسه وضميره فى بوتقة رذائل الدنيـــا ، ولا أظنه يستطيع أن يتحرر من قيود نفسه الآثمة لانه يستضىء باللهب الذى يشعله من وقود ضمائر الآدميين الذين يبيعون ضمائرهم لقاء كسرة خبز وهواء فاسد ؛ انه يشعل هذه النار للدفء والاستضاءة .. انه يحرق روحه فى لهب الذلة والاستكانة الكامنتين فى أعماقه ، فاذا انفجر بركان نفسه تحول اللهب الى ضباب يغلق ضميره ووجدانه فيعمى بصيرة قلبـــه وأحاسيس روحه ، ويتحول الى كائن يتطاول بشجاعة مزيفة الى مرتبة الانسان مدعيا أنه يثور ويحارب من أجل السلام وصدره ينطوى على وحشـــية متحجرة تأبى الامن وتنزع للعداء والخصام رغبة فى التوسع ونيل أقصى ما يمكن نيله من خيرات الارض .

ويعود الطير مرفوعا كأنه يفهم لغته فيتجه الناسك صوبه قائلا: أبعد .. أبعد أيها الطير وتنح عن الانسان قبل أن يفـــاجئك ميكروب تفكيره حاملا اليك نذير العدم .. حلق .. حلق بعيدا أيها الطير وتغن ان راق لك الغناء لتحجب تراتيل الجنائز التى تنبعث من قصور الطغاة والاقطاعيين .. ثم يتنهد فى بطء وانطلاق مردفا .. ايه يا طير .. لك العالم لانك لا تتعلق بالعالم .

انا مثلك أيهـــــا الطير حر .. ولكننى دفعت ثمن حريتى من دمى وعمرى .. من شبابى ومالى وصحتى وجاهى ولست بنادم على ما بذلت . اذ حلاوة الايمان والحرية أجمل وأشهى من حلاوة المتع فى ظل العبودية .. أين أضواء الشموع من فتنة وسحر هذه الربوع؟ أين مكر الغيد اللاهيات من طهر الزهور الناضرات أين مخاوف الليالى القاتمات من أمان الكواكب اللامعات ؟.. أين حلاوة الصهباء المرة من عذوبة المياه التى أستطيبها مرة بعد مرة ؟ .

ويحين وقت الصلاة .. فيصـــلى فى خشوع ثم يبكى بدموع التوبة الخالصة مغمغما .. خذى يا نفسى ما يعوزك من هذا النور ليتلاشى ظلام تفكيرى الدامس ويحل محله ايمانى الحارس .. اغتسلى يا نفسى بدموعى من الدنس الذى طوك فى ردائه طويلا وانهلى من النـور الالهى لتعوضى ما فاتك من حرمان الروح .

وعندما يلف الظلام العراء برداء شفيف يبعث الوحشـــة والرهبة يسكن الناسك ويغيب فى طوايا وجدانه حتى يشيع ضوء النجوم المتلألئة فيشيع معها النور فى قلبه ويتمنى ساعتئذ لو غاب فى أعماق هذا التيـه للأبد ٠

ولكنه عندما يتصور شبح الفناء يقترب منه ترتعش مفاصله، وترتعش معها حبات مسبحته حيث تداهمه خواطر مفزعة لايستطيع لها صدا، وتبرز له من وراء ذاكرته صور مريعة مخيفة ٠ انه لا يخاف الموت ، لانه مؤمن راغب فى لقاء الله لكنه لا يريد أن يموت هكذا سريعا قبل ان يقضى من عمر التوبة أضعاف مابعثره هباء فى صحبة الشيطان ؛ ويوقن أنه لا يمكن أن يعيش بقدر ما مضى فيهرع الى مصلاه ليصلى مسبحا مستغفرا مضيفا الى كل صلاة صلاة متمنيا ان يظل قائما على صلاته حتى تنتهى أيامه ٠

وينبلج نور الصبح وهو دائب على الصلاة والتفكير ٠٠ فلما أحس بالنور يوقظ ضميره الهاجع تنبه وشعر بأن أطرافه بطيئة الحركة بها ألم طفيف خاف أن يشتد، فقام مسرعا ليعالجه بالحركة والتريض، وسار دون أن يدرى الى أين ينتهى مسيره اذ استغرق فى تلك العظمة الالهية التى تتجلى فى كل مشهد أمامه ؛ وأحس بالظمأ بعد هذا الشوط البعيد الذى قطعه فى الطريق الصحراوى تحت وهج الشمس، وتلفت حوله يبحث عن سبيل لرى ظمئه فلم يجد غير قصر شاهق يقطنه أحد العظماء فتحول صوبه مسرعا حتى بلغه ؛ وتقدم فى هدوء نحو رجل يقوم على حراسته وحياه طالبا منه قليلا من الماء ٠

ورد الحارس التحية بلهجة اشفاق وتحرك ليحضر اليه الماء ولكن سرعان ما تسمر فى مكانه فى اعتدال وخشوع اذ سمع صوت حركة قريبة من الباب تنبىء بخروج سيد القصر ٠ ونظر الحارس الى الناسك نظرة خوف مشوبة بالشفقة وخاطبه فى غير رفق بصوت يسمعه (الباشا) : ابتعد أيها الرجل من هنا، فقال الناسك دون أن يتحرك: لا أظن (الباشا) يمنعك من رى الظامىء ٠٠ فصاح الحارس فى خوف : ابتعد أيها الرجل ولاتكن سببا فى ايذائى ٠٠ وقبل ان يتكلم الناسك ظهرت السيارة تنساب فى تيـه كأنها تعلن عظمة راكبها ٠٠ ولما وقع نظر (الباشا) على النـــاسك أمر السائق بالتريث مشيرا بطرف أصبعه فى غطرسة بغيضة مخاطبا الحارس:
٠٠ أو لم انبه عليك عدة مرات بعدم السماح لاحد بالوقوف هنا ؟ انهم لصوص يستترون وراء الشحاذة ٠٠ اطرده حالا ومخصوم منك خمسة أيام ٠٠ وانطلقت السيارة وقد تعمد صاحبها الا يسمع دفاع الحارس عن نفسه

أو التماس الناسك ، ولم يجد الحارس تنفيسا لما أصابه من عقاب غير أن يطرد الناسك دون أن يروى ظمأه غير آبه لمظهر تقواه وضآلة جسمه وشيخوخته ٠

وابتسم الناسك ساخرا قائلا : ليكن (الباشا) لا قلب له لان المال الوفير والجاه العريض غلفا قلبه بغلاف كثيف حجب عنه نور الرحمة وشعاع الايمان ٠٠ فبات غريبا عنا ٠٠ لكن أنت من طينتى ٠٠ مسكين مثلى ٠ ألم تظمأ يوما ؟ ولكن الحارس كان مشغولا بما أصابه من خصم جزء من راتبه الضئيل وبذلك ستزيد حالته المعيشية ضنكا وضيقا؛ ولسوف تزيد بالتالى معاناة صغاره الذين هم فى حاجة الى مليم واحد ٠٠ نعم هو انسان يحس ويشفق ، ولكن السخط على من أذاه فى رزقه الضئيل لم يترك فى قلبه محلا للاشفاق على انسان تسبب فى ايذائه ٠ ونظر اليه الناسك مشفقا قائلا : لا تحزن سأعوضك خيرا باذن الله بدل القرش قرشين ٠ ولم يدعه الحارس يتم قوله اذ ظنه يتهكم عليه فاضاف الى السباب واللعنات التى أنزلها عليه لعنات أخرى ٠ ولم يسكته غير صوت البستانى الذى شاهد ما جرى فأسرع باحضار وعاء به ماء وقدمه الى الناسك فى عطف أكيد وهو يلوح بيده ليسكت الحارس قائلا ٠٠ هل الرحمة زالت من الوجود ٠٠ حرام عليك ٠٠ الرجل ظامىء ٠٠ ويربت على كتف الناسك مشفقا هامسا: تعال استرح عندى ٠٠ تحت شجرة هناك بعيدا عن الأنظار ٠٠ وهنا نظر اليه الناسك شاكرا قائلا٠٠ حمدا لله ٠ أشكرك ياولدى ٠ حفظك الله من كل سوء ٠٠ انه معذور ٠٠ ثم صافح البستانى مكررا الشكر مخاطبا الحارس ٠٠ هون عليك ياأخى ، والله سوف يعوضك خيرا فى القريب ان شاء الله ٠٠ ويقاطعه الحارس مخاطبا البستانى: (اللى على البر عوام) ٠٠ لو خصم الباشا منك قرشا بسببه لكان الآن حطاما ٠٠ وكأن هذا القول سكينا طعن بها صدر البستانى فثار لكرامته ، وراحا يتبادلان السباب واللعنات رغم محاولة الناسك فض نزاعهما، وظلا يتشاحنان حتى ظهر لهما ابن الباشا وقد اتجه نحوهم ليعرف سبب المشادة، فلما سألهما بدأ الحارس الكلام ليبرىء نفسه ويدين البستانى، وكلما هم البستانى بمقاطعته للدفاع عن نفسه قاطعه الحارس فى غلظة وشراسة مما اضطر الشاب الى اسكاته للاستماع الى الناسك كشاهد ٠ ولما شرح الناسك ما حدث أظهر الشاب عطفا أكيدا عليه ، وهدأ روع الحارس مع وعده باستسماح والده منصفا البستانى الذى ترفق بالناسك وانتحى بعيدا ليقدم له معونة مالية ٠

وتناول الناسك احسانه شاكرا ، وتظاهر بالمضى فى طريقه ، ولما أيقن

أن الشاب ركب سيارته واختفى عاد الى الحارس وأعطاه المبلغ الذى تناوله من الشاب ، وعاد من حيث أتى دون أن يترك للحارس الذى وقف مبهوتا فرصة للكلام ٠

ولم يكد الناسك يمضى فى طريقه ويبعد عن القصر حتى فوجىء بالحارس يربت على كتفه فى رفق معتذرا عما بدر منه من غلظة وقسوة شارحا ، فى اسهاب . مايعانيه من الباشا مما حطم أعصابه وأفقده التزاماته الانسانية نحو غيره : فهو أبدا مهموم محزون لما يعانيه من ظلم وحرمان٠ ومضطر أن يحرس الباب ليل نهار اذ يخشى أن يترك الحراسة بضع ساعات لينعم بجوار أهل بيته خشية أن يتسلل أحد الفلاحين الذين يحاولون انتهاز أى فرصة للانتقام من الباشا وقاطعه الناسك قائلا : ولماذا تخضع لهذا الظلم يا أخى ؟ ابحث لك عن عمل آخر٠ فيتنهد الحارس فى مرارة ٠٠ لقد ولدت فى هذه الضاحية . ووالدى كان حارسا عنده ، وقد ورثت عنه هذا العمل ، ولقد حاولت أكثر من مرة أن أهاجر الى بلد آخر ٠٠ وكان يمنعنى ابن الباشا ويسترضيني ، ولقد حدث مرة أن سهر طوال الليل بدلا منى لاقضى الليل مع أولادى ٠٠ وأشهد الله لولاه ـ لتركت هنا ٠

وهنا يبدى الناسك عجبه للفارق الهائل بين سلوك الباشا وبين ولده ـ ويسأل الحارس عن سبب ذلك فيجيبه بأن الباشا كاد يصاب بمرض عقلى لسوء سلوك زوجته التى تنتمى لأسرة كبيرة ٠٠ واضطر أن يتزوج بفتاة من أسرة متوسطة كانت تسهر على تمريضه ورعايته . فأنجب منها هذا الولد، وخافت أمه أن ينشأ مثل اخوته الكبار ميالون للاستهتار والكبرياء المرذولة ٠٠ لذلك حرصت على رعايته بنفسها ، والاشراف على تربيته دون الاعتماد على الخدم كما كانت تفعل زوج أبيه مع أولادها ٠٠وقد عهدت الى مدرس خاص يلقنه أصول الدين فهو لا يترك الصلاة أبدا وأنشأته أمه نشأة دينية أصيلة ، عكس اخوته الذين لا يعرفون غير قضاء الليل فى مسارح المباذل وأثناء النهار يغطون فى نوم التعطل وراحة العربدة ٠

وأسكته الناسك لكيلا يسترسل قائلا ٠٠ اسكت ٠٠ اسكت يا أخى ٠٠ انى أعرف جيدا كيف يعيش أمثال هؤلاء الذين توارثوا البطالة والفساد والمجون ٠ عد الى عملك رحمك الله ورحمنا جميعا ٠ فصافحه الحارس قائلا ان البستانى يحرس الباب ريثما أعود ٠٠ فضحك الناسك وهو يقول ٠٠ حمدا لله ٠ فاستطرد الحارس ٠٠ هذا شأننا نتشاجر

لأتفه الاسباب ولكننا لا نتخاصم أبدا .. كل منا يعاون زميله ويقف معه في الشدائد .. فتمتم الناسك .. هذه طبيعة القلوب السمحة الصافية .. وهي ثروة الفقراء .

وواصل الناسك طريقه متمعنا في بواعث ما حدث ، معللا أسباب شراسة الباشا ووداعة الولد .. وأيقن ان للأم أكبر الأثر في التربيـــة والتقويم . وحسن خلق ابن الباشا أكبر دليل على ذلك ، وحمد الله على أن الام في مقدورها أن تعصم أولادها وتجنبهم سوء الانحراف .. وحمد الله مرة أخرى التي جعل الخير يتمشى بجانب الشر ليهون .

ووجد نفسه مسوقا لارتياد طريق بدا له لاول مرة جديدا، ولما سأل نفسه قيل له انه شارع جديد شق حديثا ليصل الى قصر أحد الوزراء ، وراق له المشي فيه ، ولم يكد يقطع فيه شوطا حتى استرعى نظره جماعة وقفوا كأنهم يتآمرون . فلما اقترب منهم ترامى الى مسمعه أحاديثهم المختلطة وقد باتت كموج متلاطم تلاحقه عاصفة هوجاء من الآراء المختلفة ، وعمد الى الاصغاء عن قرب فسمع بعضهم يقول : لقد كتبت الطلب وسأرفعه (للباشا) بنفسي ، وقد علمت انه لم يعين أحدا بدل الكاتب الذى فصل . فقاطعه أحدهم : ومن يوصلك اليه ؟ يبدو أنك أبله يا صاحبى . ويعقب ثالث : لو كنت تعرف امرأة جميلة ارسلها وسيطة لك . ويستطرد رابع : لقد سبقك صديق لى عن طريق وسيط عظيم فاعتذر (الباشا) بدعوى ان الحالة الاقتصادية سيئة جدا ، وانه اضطر لتوفير كثير من صغار موظفى دائرته. وهنا يثور أحد الواقفين قائلا: وما علاقة (الباشا) بسوء الحالة الاقتصادية لقد نال حظا وفيرا فى البورصة ولديه ثروة لا تقدر . انه ينعم بحيـــاة فوق مطامع الطامعين. فلو كانت مزارعه قد احترقت مثلا أو كان قد خسر فى البورصة كل ما يملك لأصبح له عذره انه أنانى جشع ولا سبيل الى رد طغيانه الا بالثورة فثوروا عليه وعلى أمثاله الذين يشربون دماء ابنـاء الشعب باسم القانون . ولم يكد الشاب يذكر ذلك حتى يتسرب الخوف والرعب الى نفوس الواقفين، فيتلفتون ليتأكدوا من خلو المكان؛ فيقع نظرهم على الناسك الذى كان يصلى تحت شجرة ظليلة اخفاه جذعها عنهم قليـلا واستطرد الثائر .. أليس من العـار أن نخضع للخور والطغيان ؟ وأن أكون أنا مثلا من حاملى أعلى الاجازات العلميـــة ولا أجد لى عملا لأننى لا أنتسب لوزير، وليس فى مقدورى أن أدفع رشوة لوسيط، ثم صرخ فى وجوههم ، ثوروا .. ثوروا أيها الجبناء .. فالموت خير لكم من هذه الحياة الذليلة النكداء .. ويسكت الثائر ليستعيد أنفاسه بينما يقول أحدهم :

وما جدوى الثورة يا صاحبى ؟ فيعقب آخر: تطوح رءوسنا فى الهواء لتكون سمادا طيبا فى أرض الاقطاعيين فيزداد حصادهم ، أما نحن وأمثالنا فلن نستفيد . فيعود الثائر الى سخطه قائلا: قد يبدو لكم ذلك.. ولكن حرارة ثورتكم ستحرك ضمائر المخلصين فيعملون على الأقل للأخذ بثأرنا، وتطهير البلاد من جلادينا؛ ومتى قامت المعركة بين أصحاب الحق من أمثالنا وأصحاب الباطل فسيكون النصر لاتباعنا فى النهاية حتما باذن الله .. ويسكت ليتأمل صدى ثورته على وجوههم ويحذرهم آخر قائلا : اخفتوا أصواتكم فان جواسيس الطغاة تجوس الارض فى كل مكان .. قولوا اننا نريد ان نعطيهم عملا وجهدا ونأخذ منهم قدر ما يستحق هذا العمل لنستطيع على الاقل أن نواصل العمل وبذلك يستفيد الوطن منهم ومنا .

ويبدو أن هذا الرأى لم يعجب الثائر فيخاطب صاحبه قائلا : أو تظن أن الاقطاعى من الايمان بمكان حتى يعطيك من ماله قدر ما تعطيه من عملك ؟ كم أنت ساذج يا صاحبى ..! ان لى ولك حقا فى خيرات بلادنا التى اغتصبها الطغاة ظلما وعدوانا ، وساعدهم على هذا القانون الذى وضعوه لأنفسهم .. وبذلك أصبحت الثروة لفئة دون فئة، وانمحت العدالة وتلاشت المساواة ، وكانت النتيجة أن تلاشت القيم المعنوية من البلاد .. اننا فى أشد الحاجة يا صاحبى الى قانون يحدد الملكية ويضيف الزائد الى خزانة الدولة لاستغلالها فى الصالح العام واصلاح حال الفقير العاجز .. ويرد عليه البعض ضاحكا فى تهكم .. وماذا فى وسعك ان تفعل ؟ ان الملايين خاضعة لهذا النظام الفاسد فهل يمكنك أنت الفرد المظلوم أن تثور وتقف فى وجه الظالم؟ ويرد الثائر ، وقد أهاجه هذا التحدى ، ولماذا لاتؤمنون بأن شعور المواطنين كشعورى تماما ، وأن الثورة قائمة فى صدر كل مواطن تنتظر اللحظة الحاسمة ؟.. فيقاطعه أحدهم: بل قل تنتظر القائد الفدائى الذى يحمل الشعلة لينير لنا الطريق فيردد الجميع : بالضبط .. بالضبط.

وهنا يصرخ أحدهم .. اسكتوا .. ها هى ذى سيارة الباشا ..

ويسرع الشاب صـــاحب الطلب بالجرى فى اتجاهها وهو يتمتم : سأعترض السيارة . ويحاول فعلا اعتراضها ، وكلما جنحت لجهة تصدى لها. وهنا يصرخ الباشا فى السائق: تريد اتلاف السيارة من أجل حيوان كهذا ؟.. ان البلد تموج بهذه الحيوانات التى يجب أن تباد بأى وسيلة. .. حذار أن تتخطاه . وترتعش يد السائق ، على الرغم من جرأته ، كلما وجد السيارة تقترب من جسم الشاب الذى تصدر قبالتها والباشا يأمره فى عنف ، بأن يســـير غير آبه به . ولكن السائق ينـحرف بها يمينا

وشمالا فى براعة ودهاء غير آبه لأمر الباشا ؛ ثم يمرق بسرعة متفاديا الشاب ، فى حين يظن الباشا ان عجلات السيارة قد طوت الشاب طيا ، فيبتسم ساخرا مسرورا لنقص الحيوانات الآدمية حيوانا كما يسميها ·· ولا يدرى أن عجلات السيارة طوت كلبا ميتا كان ملقى على الطريق ، كما لا يدرى أن الشاب استطاع أن يتعلق بالسيارة فلما ترجل الباشا وجده أمامه ليقدم اليه الطنب فى شجاعة مرفوع الرأس ·· ويرى الباشا لأول مرة شابا جريئا يخاطبه فى غير ذلة ومسكنة، فيجن جنونه ويأمر الحرس بالقبض عليه بدعوى أنه وجده يتسلل داخل القصر للسرقة · وعبثا يحاول الشاب أن يدافع عن نفسه اذ لا بد من أن تضم قائمة المسجونين اسمه الكريم تنفيذا لأمر الباشا الآمر الناهى ·

ويرى رفاقه كيف قيد الى المحاكمة كأنه اقترف اثما لا نهاية لفظاعته فيثورون مهددين ومتذمرين ، ولكن أحدهم يلتزم جانب الحكمة فيخفف من ثورتهم قائلا ان أى تصرف يخالف القانون يدفع بكم حتما الى السجن، وبذلك تفقدون ثقة الشعب وكرامتكم، أو تصبحون مشبوهين فى نظر الشعب فلا يستمع لكم ولا يتأثر بكم ؛ فعلينا اذن أن نفكر فى طريقة لانقاذ صاحبنا ، وانقاذ الشعب كله من براثن مثل هؤلاء الطغاة حماة الاستعمار ·· ويقاطعه أحدهم ·· لا ·· لا ، يجب أن نثور على هذا الظلم الذى لا يطاق فحاربوا الظلم لنقضى عليه أو يقضى علينا فنموت كراما ·

وتختلط الأصوات وتتعالى الهمهمات وهنا يشفق الناسك عليهم فيدنو منهم ويتوسطهم قائلا بصوت الحكيم الرزين ــ وكان فى طلعته من المهابة والوقار ما يكفى لاسكات الجميع ويشملهم سكون الرهبة والدهشة وهو يتكلم : رفقا بنفوسكم أيها الشباب لا تتعلقوا بالأسماء ·· انما افهموا معناها ومغزاها ومرماها ·· كل دولة كبيرة تستتر وراء اسم من الأسماء كالرأسمالية والديمقراطية والدكتاتورية والبولشفية وكلها كلمات لغير مسمى وعناوين زائفة وضعت لحركات غير محددة · كلمات مغرضة فى استعمالها · لا تكونوا كالببغاوات ترددون الكلمات دون أن تفهموا لها معنى · فلو عرفتم جوهر الرأسمالية لأدركتم انها تؤدى الى استعباد الأغنياء للفقراء والى تسلط القوى على الضعيف · والديموقراطية خلق من أخلاق الأنبياء تخلق من الخوف أمنا ومن البغض حبا ، وهى شعار الروح الطيب السمح والقلب المؤمن الكريم ، ولكنهم يعبثون بها ويتهاونون فى قداستها ونبل غايتها وسمو رسالتها ، والدكتاتورية مبدأ أقره المنطق ولكنه اذا وجد فى غير الأيدى الأمينة يكون كالجواد الجامح الذى يحطم العربة ·

وتوقف عن الكلام عندما تحول الشبان عنه الى امرأة حلوة أنيقة ظهرت فى الطريق تركب سيارة فخمة وبجانبها امرأة عجوز ، واسترعت نظره أيضا عندما ترجلت أمام قصر الباشا ، وقبل أن تغادر العربة أسرع أحد الشبان ليسترق السمع وهى تخاطب العجوز بلهجة مريرة : لا أظننى أعود قبيل الشروق مرضاة للباشا ، ثم تتنهد وهى تغمغم كانها تخاطب نفسها ، لشد ما أمقت صناعة الحب ، ولشد ما أكره مجالسة هذا الرجل. رب تب على .. ثم تجفف دمعة طفرت وهى تتجه صـــوب باب القصر والعجوز تواسيها قائلة .. اصبرى يا بنتى ان الله رحيم .. وقبل أن تدخل المرأة تلحق بها العجوز هامسة : لا تنسى الرجل .. انه ينتظر هناك حسب وعدك .. احضرى معك الكارت عليه كلمة من الباشا تكفى ليتسلم الرجل عمله .

وتهز المرأة رأسها وهى تقول ، لتطمئن العجوز ، لن أنسى . فى هذه الأونة يكون الناسك قد ترك الجماعة وراح يتمشى قرب باب القصر ليلمح المرأة عن كثب . فعل ذلك بدافع شعورى خفى ، ووقع نظر المرأة عليه وهى تودع المرأة العجوز فارتجفت واستدارت على عقبيها ، وابتعدت عن القصر كأنه غير مقصدها، واتجهت ناحيته وقد خيل اليها انه يرقبها عن عمد، فاضطربت وظنته يتبعها لأمر ما.. ومر بذهنها كل ظن مخيف يبعث على الفزع والقلق وذكريات رغم مرور الزمن لم تزل تاركة فى ذهنها أعمق الأثر ، وعمدت الى تضليله ، فراحت تتجول كأنها جاءت فى هذا المكان للرياضة . ولكن هذه المحاولة لم تقصه عنها ، بل راح يتأملها بدقه حتى شعرت بأن سهما جارحا صوب الى صميم فؤادها ، وشعرت بأن قوة جذب خفية تدنيها منه لتتبين حقيقة مرماه .. ودون تردد اقتربت منه لتخاطبه ولكن النطق خانها والعى أخرس لسانها ، ولكى تهرب من الحرج فتحت حافظتها لتقدم اليه بعض النقود .. فلم يمد الرجل يده وابتسم فى عطف واشفاق وهو يحملق فيها بعينى التحسر والألم قائلا .. شكرا شكرا لك يا سيدتى .. بارك الله فيك .. هناك من هو أحوج منى بهذا العطف الكريم . وشاء أن يقول لها شيئا آخر يعود بها الى عقلها وايمانها فراح يفكر كيف يبدأ الحديث ، وهنا أحست المرأة أن مغناطيسيا روحيا يدنيها منه ، وأحس الناسك بفراسته وعمق احساسه أن طبيعتها الاصيلة عفة ، ولكن ضرورة الحياة الملحة هى التى تدفعها الى الرذيلة غصبا ، وشـعرت المرأة برغبة ملحة فى محادثته ، شاعرة بأن مسا من النور يطوف بصدرها ويرتفع بها رويدا .. رويدا حتى خيل اليها انها توشك أن تطير نحـو السماء ، اذ لفها شعور عميق أكسب الناسك صفة الأولياء الصالحين ؛ وأن

التقرب منه فيه بركة وخير لمن يتصل به ، فقالت فى استحياء : أتقرأ طالعى ؟ ٠٠ يبدو انك ولى صالح ٠ وهنا وجد الناسك منفذا لحديثه ووسيلة لمخاطبة عقلها وأحاسيسها علها تتنبه وتفيق من سبات الضلال المغرى ، فأجابها على الفور وهو يلعب على الرمل بطرف عصاه كأنه يستمع اليه ٠٠ هيه ٠٠ انت طيبة القلب ياسيدتى ، ساقتك الضرورة الى المجزرة، وجزارك قوى متمهل يحلو له أن يمتص دماءك فى بطء ٠٠ ليستمتع بك طويلا بدل أن يقضى عليك مرة واحدة ٠٠ هيه يا ابنتى ٠٠ مسكينة ٠٠ من أجل غيرك تبيعين نفسك بثمن بخس مهما بدا لك غاليا ٠٠ سيفنى الثمن يا ابنتى ولن يبق لك غير الحسرة والندم ٠٠ يمكنك استرداد جوهر نفسك بالتوبة والقناعة ٠

قالت وقد بلغ بها التأثر أقصاه ناظرة اليه بعينين دامعتين : ٠٠ حدثنى عن مستقبلى ٠٠ قال فى اتزان : لا يعلم الغيب الا الله ٠٠ ان نجمك ياسيدتى ينبىء أنك تحفرين قبرك بيديك ، وسيحمل جثتك فقير يستجدى ثمن كفنك ٠٠ ان المال الذى تجمعه الرذيلة تذهب به الريح الى الشيطان ٠٠ وسكت مترفقا بها لما ظهر عليها من أسى ولوعة حيث جلست على الارض تبكى كأن ضميرها تنبه فى التو، فعطف عليها وربت على كتفها قائلا ٠٠ غفر الله لك ، توبى الى الله انه يقبل توبتك ٠ وشعرت بأن مسا لطيفا مريحا يمر على صدرها باعثا فى أعماقها رغبة صادقة فى التوبة ٠ فقالت ٠٠ أنا حقا فى حاجة الى التوبة ، ولكننى مضطرة الآن للذهاب الى الباشا لأطلب منه توصية لقريب يطلب عملا قال : لا ضير ٠٠ وعليك مهمة أخرى وقص عليها أمر الشاب الذى قدمه للمحاكمة ، وطلب اليها المطالبة بالعفو عنه ، فتأثرت المرأة وقامت من مجلسه وهى تقول ، فى ألم ومرارة ٠٠ مسكين كنت أظن ان المرأة وحدها هى الضحية فى هذه الحياة فاذا بالظلم والعدوان لا يعرف الجنس ولا الدين ولا الوطن ٠٠ انه كالبغض وكالحب أو أى معنى يمس الروح والقلب والعقل ٠ وتنهدت فى مرارة ثم استطردت فى جد وحماسة ٠٠ ستكون مهمتى اطلاق سراح الشاب وتعيينه أيضا وتأهبت للانصراف٠ وعندما مدت يدها لتقبل يده فى خشوع سحب يده وهو يقول ٠٠ انك امرأة حلوة وعلى استعداد لكى تكونى زوجة صالحة، فما الذى دفعك الى هذا التيار ولا أحسب الا أن هناك من يرتجيك زوجة ؟

فعادت وجلست على الرمل أمامه وقد اعتزمت أن تفتح صدرها له حتى النهاية قائلة : انى أتوسم فيك صلاح المتقين وطهر الصالحين ، فاسمع حكايتى واقض فى بعد ذلك بما أنت به قاض ، فقد عاهدت الله أن أسير وفق هدايتك ٠٠ توفيت والدتى على أثر ولادة صغرى اخواتى ، فقمت

برعايتهم لأنى أكبرهم ثم توفى والدى تاركا لى خمسة من الاخوة ليس فيهم من يستطيع أن يعمل لقـــاء قوته على الأقل ·· طرقت باب العمل فاغلقت الابواب دونى لان تعليمى بسيط لا يؤهلنى لأية وظيفة ، وأخيرا قدمتنى سيدة طيبة كانت صديقة لوالدتى الى قريبة لها فى احدى الجمعيات فألحقتنى بالمستشفى لدراسة التمريض ، وبعد اتمـام دراستى انتدبتنى المستشفى لتمريض عظيم من العظماء فى بيته، ويعلم الله أن تفكيرى فى هذا الوقت كان لا يتحول عن عملى وغايتى الانسانية العليـا ومهمتى الشريفة النبيلة · وكان اخلاصى لعملى واتقانى له من أكبر بواعث شفاء المريض العظيم·· وفى احدى الليالى بعد أن استرد صحته وكنت على وشك العودة الى المستشفى ، استدعانى وطلب أن أجلس بجـواره ، فترددت فى حياء وأدب · ولـكنه جذبنى الى جواره ، وبدأ يشـــكرنى على حسن رعايتى وعنايتى ، ولم يدعنى أفلت من يده ــ فأبيت ــ واستأذنته فى الانصراف ، فحاول أن يغرينى على البقاء بأساليب العطف ومغريات المـــادة ، ولكننى أصررت على الرفض وتركته غير آبهة ·

ولم أكد أصل المستشفى حتى استدعانى المدير · ولشد ما كانت دهشتى حينما انهال على بالسباب واللعنات · وعرفت من ثنايا حديثه أن الباشا المريض اتصل به وأخبره انه رآنى فى موقف غير شريف مع سكرتيره ولم يترك لى المدير فرصة للدفاع عن نفسى ·· وطردنى فى الحـــال من المستشفى ، فعدت الى دارى يائسة مهمومة لا أدرى ماذا أفعل من أجل الصغار على الاقـل · وكانت الصـــديقة الطيبة تعلم جيدا صدق طهرى وحصانتى فعادت الى المسعى حتى ألحقتنى بعيادة طبيب ·

ولاحظت أن الممرض الذى يعاوننى ، وهو موضع ثقة الطبيبمن زمن بعيد ، يستغل المرضى استغلالا فظيعا دون علم الطبيب ؛ ويفرض عليهم عمولة خاصة ليقرب موعد مقابلة الطبيب · ولم أشأ أن أشترك فى هذه الجريمة · وأبيت الاشـــتراك معه حرصا على كرامتى وشرف مهنتى قانعة بمرتبى الذى أتقاضاه وبما يقدمه الى المرضى بعد شفائهم كجـــائزة على عنايتى واهتمامى بهم ·

وبدأ يغرينى بأساليب العاطفة، فلما أعرضت خاف أن أكشف أمره فوشى بى الى الطبيب متهما اياى بمغازلة شاب مريض فى جرأة مخزية · واكتفى الطبيب بطردى حرصا على سمعة عيادته ، وسرت فى الطريق الى دارى لا أدرى ما الله فاعل بى ·· واذا بسيدة تصطدم بى عن غير عمد منى ويوشك أن يقع بيننا شجار لولا تدخل أحد المارة فترفق بى وصرف المرأة

فى لطف ولباقة وسألتنى عن والدى ، ولم يكد يعلم من هو حتى أظهر عطفه وأخبرنى أن والده كان صديقا له ، وبالغ فى الاهتمام بى فرافقنى الى المنزل ليطمئن على اخوتى . ولما أخبرته بما حدث لى أبدى استعداده للتزوج بى ليريحنى من عناء العناية وليقوم بتربية اخوتى • وكان من الطبيعى أن أقبل بعد أن أظهر لى عطفا وحنانا لم ألمسه من رجل قبله وبعد أن لازمنى سوء الحظ طويلا •• وتم زواجنا وأنجبت منه طفلا ، وقد ترك لى حرية العمل كممرضة حرة لأتيسه على تربية اخوتى •• وعرض ولدى قبل أن يتم الشهر الاول . وكان فى هذا الوقت لا يغادر البيت بدعوى مساعدتى فى شئون البيت •• ولما اشتد مرض ولدى طلب منى أن يأخذه الى طبيب أصدقائى واصطررت أن أفتح أمامه الصندوق الذى كنت أحتفظ فيه بمالى الخاص وكنت حريصة على ألا أمد يدى اليه الا اذا اضطرتنى الحاجة الملحة حرصا على حق ولدى ومكافأة أبى التى صرفت له من الحكومة لتربيـــة اخوانى • ولما أن أرافقه مع الطفل فانتظرت فى البيت ريثما يعود •• وحتى اليوم وشطرا كبيرا من الليل ولم يعد ، وتوجست خيفة وظننت أن الطفل توفى فى الطريق وهو يخشى مواجهتى به خوفا على • وذهبت فى اليوم التالى الى عيادة الطبيب الذى أخبرنى أنه ذاهب اليه •• ولشد ما هالنى انه لم يذهب • وعدت كالمجنونة الى البيت ظنا أنه عاد بعد خروجى فلم أجده • ووجدت الصديقة الطيبة التى حضرت زواجنا فى انتظارى •• ترتدى ملابس الحداد •• وبدأتنى بالتعزية •• وأيقنت أن الولد مات واتجه تفكيرى نحوه •• أين هو ؟ ••

واستطردت الصديقة قائلة •• اهتمى بصـــحتك من أجل ابنك وأخواتك ، ألم تتصل بك المستشفى بعـــد لاستلام جثته • أم اتصلوا بأهله ؟•• فتملكتنى الدهشة •• وسألتها •• عمن تتكلمين •• قالت : زوجك •• قلت : تعنى ؟ قالت •• أو لم تعلمى أنه قتل فى حادث تصادم ؟ أو لم تقرئى الأخبار ؟ وكلفت أخى باستحضار الأخبار •• ولشد ما روعنى رؤية صورة زوجى مضرج بدمائه فى حادث سيارة كان يركبها مع امرأة فى الطريق الصحراوى •• وليس معه ولدى •• وكدت أجن لولا ترفق المرأة بى التى ساعدتنى لمعرفة مصير الولد الذى لم يظهر له أى أثر •• وبعد بحث وعناء استطعت أن أهتدى الى شقيقته التى أخبرتنى أنه زارها قبل الحادث بأيام ، وأخبرها أنه سيحضر اليها طفلا أنجبه من زوجة اعتزم أن يطلقها لأنه سيتزوج بامرأة أخرى غنية •• وعرفت من أخته انهـــا رفضت قبول الطفل لأن العلاقة بينهما على غير ما يرام لسوء سلوكه وعدم رضاها عن تصرفاته ، لأنه يستغل الزواج كتجارة للحصـــول على ما تملكه

المرأة التى تقع فريسة له • وهو ماهر فى اصطياد النساء •• وفجأة وجدتنى أفقد زوجى وولدى •• ولم تقف الصدمة عند هذا الحد ، بل زادت عندما اكتشفت سرقته لحلى أمى ومكافأة أبى ، ولم يترك لى مليما واحدا فى الصندوق •• ووجدتنى أواجه هما جديدا بجانب اخوتى الذين يتضورون جوعا •

وانتهى الأمر بعد أن اضطررت الى بيع أثاث البيت قطعة قطعة لأطعم اخوتى ، ثم طردتنى صاحبة البيت اذ مرت الشهور دون أن أدفع لها أجر المسكن ، اذ كان ثمن المنقولات التى بعتها يكفى بالكاد لاعالة اخوتى •• وأفسحت لى الصديقة الطيبة غرفة فى مسكنها ريثما تبحث لى عن عمل •• ولكنها ، لسوء حظى مرضت مرضا شديدا استلزم منى تمريضها •• وانتهز زوجها فرصة ملازمتها الفراش فراح يتودد الى •• ولكننى كنت أتجنبه ، وأحاول قدر المستطاع عدم الاختلاط به •• وفى أمسية ما أحضر لاخوتى تذاكر سينما وصحبهم اليها ليرفه عنهم •• وصعدت بعد أن نامت المريضة الى غرفتى لأستريح بعد جهد التمريض طوال النهار وحرصت ألا أستسلم للنوم حتى أطمئن على عودة اخوتى ، وأخذتنى سنة من النوم بالرغم منى •• وبعد مضى فترة وجيزة أحسست بيد تطوقنى فظننته أخى ينبهنى ، ففتحت عينى لأطمئن على اخوتى ، ولشد ما أفزعنى أنه زوج الصديقة المريضة • وكدت أصرخ ولكنه وضع يده على فمى • وملكت أعصابى خوفا على صحة المريضة فلطمته فى عنف ، وفتحت له الباب وهددته بالاستغاثة ، وهبط الزوج مخذولا مغيظا • ورغم حيطتى الشديدة ظل الرجل يطاردنى فى كل مكان بالبلت حتى لاحظت الخادم وبدأت ترتاب فى وتنظر الى نظرة احتقار ظنا منها أننى أجاريه متكلفة صده أمامها • وبدأت تأكل قلبها لما لاحظت من تصرفاتها مع سيدها وهمساتها معه فى خلوة الغيرة وهو يدافع عن نفسه ، ويتهمنى بالتقرب اليه رغم تجنبه لى ، ويطول حوارهما وينتهى بتهديد الخادم له اذا لم يكف عن مغازلتى فسوف تخبر سيدتها •• وهنا التزمت جانب الحيطة ووجدتنى مضطرة الى ترك المريضة بدعوى أننى دعيت للعمل فى بلد آخر • وذهبت فى التو لزيارة سيدة من أسرة كبيرة كانت تتردد على الطبيب فى العيادة • وكانت كريمة فيما تمنحنى اياه من مال كلما زارت الطبيب •• ذهبت اليها عساها تجد لى مخرجا من محنتى أو تجد لى عملا • ورحبت السيدة بى ووعدت بمساعدتى وأفسحت لى غرفة فى حديقتها بلا مقابل • وكانت لبقة ظريفة فانسقت الى عطفها ، ورحت أتردد عليها ؛ وأغرانى مظهرها على الاطمئنان اليها • واهتمت بى وأولتنى عنايتها ، وراحت تصحبنى معها فى الزيارات ، وبالغت فى تكريمها فمنحتنى

بعض ملابسها ؛ وعلمتنى كيف أتجمل وأتزين لأظهر معها بمظهر يليق بها · وقد كانت مغرمة بزيارة سيدات الطبقة الراقية · وهناك رأيت مالم أره من قبل ·· كيف يقضى أبناء سادة البلد ، كما يزعمون ، الليالى الحمراء ·· أى خزى وأى عار ! صعب على فى بداية الأمر أن أتمشى مع توجيهات هذه السيدة وكدت أهرب من بيتها ، ولما شعرت باستنكارى لتصرفاتها صارحتنى قائلة : أو لم تحاولى أن تعملى عملا شريفا ؟ · أو لم تعملى جهد طاقتك على حفظ شرفك وكرامتك فكان نصيبك الفشل والخسران ؟ ·· اذن لم يعد للفضيلة أثر فى هذا العصر يا صغيرتى حتى يكون لها حارسة من مثيلاتك المسكينات ·· انظرى الى العظماء والوجهاء وكبار رجال الدولة وبعض زوجاتهم وبناتهم واخواتهم ، فماذا تريدين من قوم تحتل الرذيلة فيهم مكان السيادة ؟ ·· أرأيت كيف تنجح أساليب الرذيلة فى هذا العصر ؟ أنا أعتقد أنها وسيلة للرزق بأسلوب العصر ·

وكانت تضحك فى سخرية وجنون عندما تقول ذلك وهى تدخن السيجار وفى عينيها بريق الألم الممض الدفين ·· ألم الخضوع لغير ما تهوى ·· لقد عرفت يا سيدى ان كثيرات من النساء المستهترات أرغمن على سوء السلوك ارغاما تعجز عن مقاومته أية قوة فى العالم ·

فقاطعها الناسك ·· الايمان قادر على رد هذا الارغام · ! قالت : أنا معك اذا كان هناك وقت للتفكير فى الايمان ·· ولكن ماذا يفعل العقل اذا كان كل وقته يفكر فى كسرة خبز والقلب فى وسيلة يرفق بها حاشية من يمنح هذه الكسرة ؟ ·· اسكت ·· اسكت ·· يا أبى ·· ان الحديث فى هذا الشأن لا نهاية له ·· النهاية ·· فى احدى الحفلات بعد أن أثرت على السيدة وجعلتنى طوع بنانها جمعتنى المصادفات بالباشا الذى طردنى ، فلم يعرفنى اذ كنت قد أصبحت بفضل صناعة التجميل غادة فاتنة ، فجن جنونه بى ؛ وراح يغدق تحت أقدامى من الذهب مايغرى على مجالسته والتودد اليه ·· لا طمعا فى حبه أو ماله ، ولكننى وجدتها فرصة للانتقام منه ، اذ لم ينسنى ولهه الذى يبديه وذهبه الذى يغدقه على ما نالنى بسببه من تشويه سمعتى وهتك كرامتى ·

وبعد أن جشمته الصعاب من بذل المال الوفير واهدار كرامته واذلال رجولته ، قبلت أن أزوره فى قصره بعد أن شاع بين الناس أننى عشيقته ، وراح أصحاب الحاجات يلجأون الى ابتغاء تحقيق مطالبهم · ولا أكتمك أننى من أجلهم ارتضيت لنفسى أن أكون عشيقة رجل نذل لا يعرف

عن الكرامة غير اسمها ولعل ايثار مصلحة غيرى على نفسى فيه تكفير لخطيئتى التى أرجو الله مخلصة أن تنتهى بالتوبة قريبا ان شاء الله ٠

وسكتت عند هذا الحد ، وانطلقت تضحك فى سخرية حتى دمعت عيناها والناسك مصغ فى ذهول ٠٠ ثم عادت الى الكلام قائلة : كثيرا ما كانت صاحبتى أو على الاصح موجهتى فى هذا الطريق الشائك تسألنى كلما تنبه ضميرى وحاولت أن أهرب من أهوائى الى طريق آخر ابحث فيه من جديد عن عمل شريف ٠٠ أيهما على حق فى الحياة ٠٠ معشر الأغنياء الذين يتاجرون بالشرف أم الفقراء الذين يتسولون محتفظين بشرفهم ؟ وهل الفقر نقمة أم نعمة ؟ فاذا قلت لها بل نعمة ولا ريب قالت : اذن لماذا لم يخلقنا الله خلقا آخر يتناسب مع احتمال الجوع والمرض والحرمان فنقنع ونعيش ؟ فأقول لها : هناك الزاهدون القانعون المحرومون ٠ فتسفهنى قائلة ٠٠ هؤلاء خلقهم الله للزهد والقناعة والحرمان ٠ كالأنبياء والأولياء ٠٠ وأنا وأنت لسنا منهم ٠٠ اذ لو كانت الناس كلها كذلك لا نمحت من الوجود صفة النبوة والولاية ٠ وتخفف من لوعتى مستطردة ٠٠ ثم من يدرى ألا يصح أن عذابنا هذا ، وان بدأ فى مظهره سعادة ممتعة ٠٠ تكفير لأخطاء أسلافنا ، وأن أرواحهم تتعذب الآن لأنها تدفع ثمن ذنوبها منا ٠٠ أو قد يصح الله أراد أن يحرقنا بالنار فى مستهل حياتنا لنستطيب حياة النعيم فى نهاية دنيانا ٠

وسكتت الغانية لتجفف دموعها ٠٠ فتألم الناسك لها مشفقا قائلا فى تحسر أتبكين ؟ ٠٠ فتكلفت الضحك لتهرب من احساساتها الباطنية ثم استرسلت قائلة ان الدودة آفة النبات وآفة الأغنياء الغانيات ٠٠ تصور يا سيدى فى الوقت الذى يمنح الغنى مئات الجنيهات لاحدى الغانيات يبخل على محتاج أو جار مسكين بمائة من المليمات ٠

وغلبتها دموعها فسكتت ، ثم غالبتها وهى تنظر اليه نظرة الرجاء فى التوبة والرغبة فى أن يعينها ٠ ثم تستطرد بصوت حزين متكسر ٠٠ أنا لا أبرىء نفسى من وصمة الاثم ٠٠ لكن ما حيلتى ٠٠ قل لى ٠٠ قال : هيه يا ابنتى ٠٠ ما عساى أقول لك ٠٠ ويطرق مليا ثم يقول ٠٠ ان العمل يا ابنتى هو الطريق الوحيد الذى يكفل لك ولأسرتك حياة رضية بعيدة عن الرجس والدنس ؟

قد يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك لأنك اقترفته فى البداية مرغمة واسترسلت فيه لتسعدى الآخرين ٠٠ ولكن لو أن كل من ينشد الخير

لا يتخذ غير الشر سبيلا لا نمحى الخير من الوجود يا ابنتى ٠٠ انما هناك سبل توصل للخير حتما تقصر أو تطول أحيانا ٠٠ المهم لا بد أنها مؤدية للخير اذا صح عزم الراغب فى الخير ٠

فقاطعته ٠٠ انك طيب القلب وعليم بمـــا يدور فى المجتمع ٠٠ فقاطعها فى حزم بلهجة الآمر ٠٠ أمامك يا ابنتى مكتب العمل والمؤسسات الاجتماعية تكفل لك حياتك وحياة اخوتك وتهىء لك أى عمل شريف ٠ كما فى مقدورك أيضا الاستعانة بخبرة وارشـاد المؤسسات الاجتماعية وهى كفيلة بمعاونتك ٠

فتقول : ان قلبى لم تمسه يد الرذيلة ، انه ما زال عفا ٠٠٠ ادعو الله يا أبى أن يرحمنى ويمنحنى التوبة والمغفرة ٠٠ وســـوف أحـاول أن أعمل بنصـحك بعـد أن انتهى من مهمتى اليـوم التى أخذتهـا على عاتقى فان بى رغبة صادقة لتحقيقها ٠٠٠ ثم تتأهب للانصراف بعد أن تنظر الى ســاعتها قائلة : لقـد أزف الوقت ولم يبق على خـروج الباشا غير دقائق ٠٠٠ ثم تحاول ان تقبل يده فيأبى طالبة منه الدعاء ليغفر الله لها ٠ وتأخذ طريقهـا باحســاس جديد تجر أذيالهـا كراهية تسير فى طريق الدير تفكر كيف تتخلص من آثام الدنيا لتعيش آمنة راضية ٠ ثم تبتسم فى مرارة لتلكن مشيئة الله ٠

وعاد الناسك الى محرابه منهوك القوى كأنه خرج فى التو من معركة دنيوية هائلة ، وقد ظلت مشـــاهد حديث الغانية التى مرت به تكبر وتتجسم فراح يفكر فى عمق عن مآل الشباب والفتيات فى هذا العصر ٠ وراودته أخيلة تبدو مظلمة فيرتعد ، ثم تنعكس عليها اشعاعات ساطعة فيطمئن ٠٠٠ ولم يكد يستكين حتى أطل عليه من وراء ضباب الماضى خيال بعث ما يثير خواطره فيصرخ بصوت مخنوق كأن أفعى لدغته ويتمتم ٠٠٠ سبحانك ربى اللهم انقذنى من خواطرى كما انقذتنى من رغباتى ٠ لقد نسـيت وجـود المرأة يارب ، فأقم بينى وبينها حجابا كثيفا ٠ وصمت عن لوعة حرى ، وغمض عينيه كأنه يحاول ألا يرى طيفا امامه . ولكن الطيف يأبى ان يفارقه فيعاكسه بأخيلة تتصل بماضيه البعيد ، ويجد نفسه بالرغم منه تحت تأثير ذكريات أطرق لها باكيا ثم تنبه لنفسه .. وكأنه ندم على لحظات قضاها فى مسايرة هذه الذكرى المروعة فغمغم : تبا للمرأة فيها الحياة وفيها الموت ٠ فى دنياها الخلود والفناء والحسن والقبح ٠٠ ان شاءت ارتفعت بنا الى السماء أو هبطت بنا الى الدرك .

وهنا تتندى عيناه بالدموع فيهرب من أساه الدفين بالتسبيح ليطرد عنه شبح بعث هذه الهواجس ... ولكن انفعالاته لا تهدأ فيظن أن شبح الماضى البغيض يطارده ، فيترك مكانه كأن الشبح قائم فيه ويخرج مسرعا ليأخذ مكانا آخر مخاطبا نفسه لقد نسيت كل شيء . ولم أعد أحفل بشيء . وليست هناك قوة فى العالم تحول تفكيرى ومشاعرى عن الله ... وفى عزم أكيد استعاد طمأنينته ، وتشبث بذكرى الله مرددا تسبيحه لينسى كل شيء ، وأخذته موجة من الروحانية ألقته على شاطيء الأمان فاستراح ،وبينما هو تائه فى بيداء تأمله الروحى بالقرب من محرابه يمر به بعض الأشرار فيذهلهم جلوسه على هذه الصورة الغريبة ، وقد بدأ مطرقا مفكرا ساهما يبدو على محياه ظواهر الانتعاش الروحى ويصوره هدوؤه على هيئة تمثال جاثم .

واستوقفهم أحدهم قائلا : من هذا ؟ أمن الانس أم الجن ؟ ويعقب غيره ، فى سخرية ، قائلا : دعوة قد يكون ساحرا فحذار أن تقتربوا منه ليكشف أمرنا .. فيقاطعه غيره : ولماذا لا يكون زاهدا ؟ فيعقب أحدهم متهكما ، وهل تظن للزهد وجودا فى هذا العصر الذى شغلته أضاليل البشر ؟

ويضحك الساخر متهكما .. ولم لا يكون رئيس عصابة جعل المخبأ محرابا ، ولبس مسوح الزاهد امعانا فى التنكر ؟ فيقول آخرهم بصوت هادىء .. ولم لا يكون باحثا أو محققا جاء من وراء البحار ليكتشف ما وراء الصحراء من أسرار ؟ .

وهكذا يطول بهم تبادل التخمين والتحذير كل حسب تفكيره حتى ينتهى أحدهم بقوله ، فى خبث ولهجة حاسمة كأنه اهتدى الى مفتاح السر : يمكننا أن نتبين حقيقة أمره ، ثم همس لهم بما دار بخلده فى حذر ، كأنه يخشى أن ينقل الهواء ما جاش بخاطره الى الناسك . فهللوا لقوله كأنهم وقفوا على حل اللغز . وصاح أحدهم مهرجا : لقد أصبحت عرافا يا صاحبى ..

وأخيرا يتكلم أحدهم وقد كان صامتا : لعنة الله عليكم . أتدفعون اليه شيطانا وقد يكون مؤمنا بحق .. فيتحداه الخبيث .. ليس فى هذا الزمن يا صاحبى .. لقد تلاشت الروحانية منذ أنطق الانسان الحديد .. فيقاطعهم من لم يزل فى قلبه لمحة من نور الايمان . وهل الانسان هو الذى أنطق الحديد ياغبى ؟ أو لم يقل الله تعالى فى كتابه

العزيز ، ورعيم الانسان ما لم يعلم » . فيضحك الساخر مقاطعا .. متى كنت فقيها ؟ ولماذا لم تتخذ هذا الايمان وسيلة لرزقك ؟ .. فيثور الآخر خسئت يالعين . أنت مفسدى وشيطانى .

ثم ينتحى عنهم ثائرا ، دعونى أرحل فقد تعبت ، ولا قدرة لى على المضى معكم فى هذا الطريق المظلم الملغم بالشرور . انى أفضل أن أحمل الأثقال فوق كتفى لقاء قرش أسد به رمقى ، وأنام طوال الليل مطمئن البال مرتاح الضمير يعوض نومى الهادىء قله غذائى .

ويقبض رئيس العصابة على يده مهددا .. أبهذه السرعة تريد ان تتخلى عنا ؟ ... أنملىء لك الطريق بالورود والرياحين ونضيئه بالشموع والقناديل لتسير وفق هواك ؟

فيتحداه الثائر .. سر فيه ومن معك آمنين .. أما أنا فلم أعد أحتمل الاستسلام للشر الشنيع ،انه ايذان بالموت المريع . ويلوح بيده كأنه يودعهم لغير رجعة ويخطو بضعة خطوات وهم يتبادلون نظرات الحيرة والغيظ وينبرى أحدهم متأبطا ذراعه متكلفا الرفق قائلا ، أتظن أنه من السهل أن تفارقنا ؟ يا صاحبى لن يفرقنا غير الموت . لقد تعاهدنا على الخير والشر ، فلا يأبه له ويقاطعه فى صراحة واصرار ، صدقونى لم تعد لى رغبة مطلقا فى مؤازرتكم والعمل معكم فى الحياة بأسلوب الشر . اطمئنوا ، لن أكشف أسراركم ، فاذا أفشيتها اقتلونى وافعلوا بى ما يشاء هواكم . انما الحقيقة يا اخوانى اننى ضقت ذرعا بحياتى ، لم أعد أتذوق طعم النوم والطمأنينة منذ انضممت اليكم .. لقد كنت أنام هادئا رغم خلو معدتى وعسر حالى ، أما الآن ، فعلى الرغم من وفرة المال الذى اغتصبته معكم سرا ، فاننى أشعر مطلقا بلذة الراحة والطمأنينة لحظة واحدة . فى الليل والنهار أظل دائما فى قلق واضطراب وخوف ، ويكفى مجرد تصورى أن العدالة تطاردنى أينما اتجهت ، أو ان الطعام الذى أتناوله ملوث بالدم والرائحة العفنة التى تفوح من القتلى الأبرياء .. لا .. لا .. سأجعل تعويذتى دائما .. حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين راجيا من الله أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى انه غفور رحيم . كم يؤذينى ويؤرق مضجعى تفكيرى الدائم بأننى أقتات الحرام ، ولا عمل لى غير الاثم .. ثم ينظر اليهم نظرة من استفاق الى نفسه بعد غيبوبة طويلة مستطردا : لماذا لا نفكر يا اخوانى فى أن نعمل عملا شريفا .

وهنا يقاطعه أحدهم .. ومن هؤلاء الذين نعمل معهم ياصاحبى ؟ .. الذين حرمونا القوت ليودعوا ثمنه خزائنهم ؟ ... ويعقب غيره ، مع من لا يعملون بدستور الشريعة ولا يفهمـــون لغـة لعدالة السماء ؟ فيجب اذن ان نعاملهم باللغة التي يفهمونها . لغة الاغتصاب . ويعقب غيره .. صحيح .. ان كل غنى لو عنى بدفع زكاة ماله لما بلغ حال الفقر هذا المبلغ الشنيع . ويرد عليه آخر : وهذا لا يفهمونه أيضا ، فكثيرا ما نادى المصلحون بأن تجبى الزكاة وتستغل لتشغيل المتعطل . وقاطعه ثالث منهم ـ هب أنك كنت مشرعا فماذا تصـــنع ؟ فأجابه : أعلم الفقراء أولا حب التعـــاون وحب العمل ، وأوفر لهم فرص الحيـــاة الشريفة . ويضحك الجميع مرددين .. ليتك يا أخى مشرعا . ويعقب أحدهم لقد نسينا الشيخ فلنعد اليه .. هيا نرى ما وراءه ... واقترب رئيسهم من الثائر قائلا فى رفق ودهاء .. أتظن اننا نأبى الحلال ؟ .. أبدا والله ... الامر يحتاج لروية وتفكير لكى نعمل عملا شريفا ، ولنفكر فى ذلك فى فرصة أخرى ، وتعال الآن نفكر فيما يجب أن يكون لنكشف أمر هذا الرجل .

وأيقن الثـــائر أنه من المستحيل أن يتخلى عنهم بهذه الســـهولة والسرعة ، فتكلف الموافقة بدوره ريثما تحين فرصة الانسحاب .

وفى اليوم التالى جاءوا فرادى ، وتفرقوا فى المنطقـــة يبحثون عن مقر الناسك الذى لم تظهر معـالمه فى المساء الفائت فى الوقت الذى كان النـاسك يسير فى طريق موحش حتى بلغ منزلا طرق بابه بطرف عصاه فى حذر ، وبعد أن فتح الباب أطلت منه امرأة قروية لم تظهر غير رأسها وقد أرخت خمارها لتخفى وجهها عدا عينيها ، فلما رأت الناسك اختفت بسرعة دون أن تتكلم ، وبعد لحظة خرج ولدها الصـغير يحمل اناء مملوءا باللبن فتناوله الناسك منه ، ووضع فى يده قطعة فضية ثم قبله على جبينه قبلة أبوية ، وانصرف دون كلام الى محرابه ، وقبل أن يدخل المحراب جنى بعض الثمر من النخلتين اللتين تعانقان كوخه ، أما القروية فقـد تناولت النقود من ولدها فى غبطة واضحة واخفتها فى خزانة ملابسها وقد شـاع البشر على وجهها .

وعلى غير ميعاد حضر زوجها اذ كان على سفر ، ولم تدرك المســكينة لبساطتها الشر البادى على وجهه ، اذ كان يغالبه ببســـمة صفراء مفتعلة . أو لعلها كانت مشغولة الفكر بنقودها التى عولت على أن تشترى بها نعجة صغيرة تدر عليها خيرا وفيرا بعد حين .. على أنها لم تكد تشعر

بزوجها حتى أقبلت عليه هاشة باشة تطوقه بذراعيها فى حنان وفرح قائلة : سنصبح قريبا من الاغنياء ان شاء الله .. ووضعت بين يديه كيس النقود التى جمعتها أثناء تغيبه ، ومالت عليه فى دل وخفر مترقبة أن يضمها ويقبلها شكرا لها على هذا التوفير ، ولكنه ابتسم فى خبث متعمدا أن يشغل نفسه بعد النقود ليخفى الشك الذى راوده .. وبعد ان انتبهى من عدها التفت اليها متسائلا . ومن أين لك هذه النقود ؟

فأجابته دون تلعثم : ثمن اللبن الذى ابتاعه منى رجل طيب كريم يبدو أنه ولى من أولياء الله الصالحين .. انه يدفع ثمن اللبن ريالا كل يوم .. فاغتصب بسمة ليستدرجها وقال معقبا : حقا انه رجل كريم وأى كريم .. فما سبب هذا السخاء يا ترى ؟ ثم ضحك مستطردا : فى الأمر سر ولا شك . ونظرت الى عينيه المحمرتين فلم ترتعد ولم تخف ولم تفقه ما يعنيه لأن الأمر فى حسبانها بسيطا . وعاد يقول : قولى الحق : ما سبب سخاء الرجل ؟ فردت عليه ببراءتها المألوفة : انه رجل طيب .... فازداد حنقه وبدأ يهتاج قائلا : أى رجل هذا الذى يبتاع كوب اللبن بعشرين قرشا . لا أظنه معتوها أو مجنونا اذ لو كان كذلك لهشم رأسى أو رأس الصغير أو رأسك فى ساعة جنون .. ولكنه لم يفعل .. اذن فهو عاقل مفتون . يحبوك بهذا السخاء لفرط غرامه المكنون بك .. فقاطعته فى حدة : من أجلى أنا ؟ معاذ الله ، انه لم يدخل البيت مطلقا ولم يكلمنى قط .. سل الجيران . انه يتناول اللبن من الصغير وينقده الثمن وينصرف . وقاطعها فى ثورة .. وكيف عرف أن عندك لبنا للبيع ؟ فقالت بلهجة اليقين عله عرف من سكان الحى ، أو لعله عرف من عادث موت الجاموسة وقد أرسل اليك ولدك فى حينها يوم ماتت فى الطريق عندما وقع على رأسها حجر من منزل صغير أمر الباشا بهدمه بدعوى أنه قديم البناء والناس تقول انه أراد أن يزيد حديقته اتساعا لتسع موائد حفلات زوجه وابنته . وتعاودها الذكرى الأليمة فتبكى وهى تقول : وقع الحجر على رأسها فماتت فى التو . ولا أكتمك اننى صعقت واندفعت كالمجنونة داخل القصر أبكى وأصرخ واستغيث لعل الباشا يرحمنى ويعوضنى كما كان يأمل الناس الذين التفوا حول الجاموسة يتألمون ويطلبون منه الرحمة ولكنه أمر الخادم بطردى دون رحمة ، ولما حاولت اللحاق به وقت خروجه لاشكو له ما حل بنا من بلاء وفقر نهرنى قائلا : كان يجب أن تنتبهى الى الهدم وتسيرى بجاموستك بعيدا . وتركنى كسيرة القلب حزينة مهمومة لبعدك عنا وما حل بنا ، وبينما نحن عائدون الى بيتنا

نبكى لما أصابنا استوقفنا هذا الشيخ وسـأل ولدى عما حدث فقص عليه كارثتنا . فرثى لحالنا وأعطى ولدى بعض قطع فضـية وتركنا بعد أن قال .. أذهبى الى دارك يا ابنتى آمنة ، فان الله الذى خلقكم لن يغفل عنكم وهو أرحم الراحمين . وفى الصـباح طرق بابنا ، ولما خرج ولدى اليه سلمه هذه النعجة لنستعين بها على العيش ريثمـا تعـود واشترط أن يأخذ يوميا كوبا من اللبن مقابل الثمن الذى يدفعـه . واصارحك اننى رفضت ، ولـكن ابنك عندما استشار اخيك نصـحنى بقبولها ، وافهمنى أن الشيخ ولى من أولياء الله . ولقد رآه بنفسـه عدة مرات يصلى ويسبح الله . فقاطعها وهو يغمز بعينيه فى مكر ودهاء ، وما دام حسن النية لماذا لم يتحدث الى عندما رآنى قبل انصرافه وأنا اجتـاز عتبة الدار . فقالت : لأنه لم يتعود أن يخاطب احدا غير الصـغير . فقال متخابثا : ولماذا لا تجزيه خيرا ؟ أما كان يجدر بك دعوته لتنـاول كوب من الشاى على الاقل ؟

فقالت فى بساطة .. الله وحده القادر على أن يثيبه خيرا .. وهو كما علمت يفعل الخير فى سبيل الله دون أن ينتظر جزاء انسـان .. ثم تتبسط فى الحديث مردفة : لقد علمت من جارتنـا شـوقية أنه يحسن كثيرا فى الخفاء .. ولم يكد الزوج يسمع اسم جارتها شوقية حتى جن جنونه وصرخ .. اذن شـوقية تعرفه أيضـا .. أنا أعرف شوقية جيدا .. انها امرأة .. وهنا قاطعته صارخة .. اسكت .. ان لك ابنة .. حرام عليك .. انها طاهرة .. صـحيح جريئة .. لكنها عفة .. وملكته غيرته الجنونية فعاد يصرخ : أتظنيننى أبلهـا .. لا يمكن أن يكون ملاكا .. لقد خنتنى فى غيبتى .. انه عاشـق وكان اليوم على موعد معك كالمعتاد فلما رآنى تغافل وارتد .

كان من الطبيعى أن تفزع المرأة لهذا الاتهام ، وتدافع عن نفسـها وعن الناسك باللين آنا والحدة أحيانا . ولكنه لم يرتدع بل فسر دفاعهـا بالحرص على استبقاء علاقتها بالناسك ، فتركها وقد انتـابه مس من جنون ، وتحول عنهـا ليخرج ملوحا بسكين حاد ، مرددا بصوت الهائج المخبول : سأنتقم لشرفى حالا .. ولم يكن فى مقدورهـا غير الحيلولة بينه وبين الخروج ممسكة بيده صارخة فى توسـل : انه برىء .. أتقابل احسانه بالاساءة ؟ .. ويلك من ربك .. وزاده الدفاع عن الناسك هياجا ، فانقض عليها فى جنون ، وقبض على عنقهـا فى غير وعى وهو يصرخ : أنت تحبينه يا فاجرة وتخافين عليه .. ولم يدعهـا الا بعد أن ظن أن روحها قد قاضت لانقطاع أنفاسها ، وقبل أن يغادرها لمحته من

وراء جفونها يشحذ السكين وهو يكز على شفتيه فى غيظ عميق وأيقنت أنه سيقدم على قتل الناسك حتما ٠٠ ٠٠ فاستجمعت قواها واستحالت متنمرة ، وانقضت عليه لتأخذ منه السكين وقد اعتزمت أن تحول بينه وبين قتل الناسك مهما كان الثمن حتى ولو ذهب هو ضحيته أو ذهبت هى ٠ وقام بينهما عراك عنيف وترامى صراخها الى الجيران فهرولوا اليها وفى مقدمتهم شقيقها الذى أسرع بالقبض على يده ، وكان يوشك أن يطعنها فى عنقها ولم يكد يقصيه عنها حتى قام بينهما عراك عنيف انتهى بجرح الشقيق واصابة الزوج فى رأسه اصابة بالغة ٠ وتناقل الناس خبر ما جرى فى شىء من المبالغة وكثير من التغيير ، وقيل فيما قيل أن زوجها ضبطها مع رجل غريب ٠٠٠ وقال بعضهم ، وكان أكثر انصافا ، أنها لم تشأ أن تعاشره لانه هارب من العدالة ، وهى تخشى أن يعود الى مزاولة الاتجار بالمخدرات ٠

وقيل للناسك عندما حضر كعادته لتناول كوب اللبن ووجد بيت القروية مغلقا اذ أخذتها زوج شقيقها لتعالج ما أصابها من رضوض وكدمات ٠٠ خلاصة ما جرى مع التلميح عن علاقته بالزوجة ليروا مبلغ تأثره بالحادث وماذا هو فاعل ٠

ولزم الناسك الصمت مستغفرا الله للزوج ولكل من يسىء الظن بالزوجة البريئة ٠٠ وقال لمحدثه ٠٠ أعدى عدو للانسان هو الشك المثير٠ غفر الله للزوج وعافاه مما ابتلاه ٠٠ فلو لم يكن الله غفورا رحيما لما دخل الانسان قط الجنة ٠ وفى مقدور الله أن يجعل من الشيطان بخورا يحرقه تحت أقدام الخاطئين ، ولكنه شاء لحكمة آلهية أن يجعل من تاريخ الانسان سلسلة أقاصيص متصلة الحلقات ليظل العالم يسير فى طريقه المرسوم له منذ الأزل ٠٠٠ وارتاح المتحدث الماكر الى منطق الناسك ٠٠ فلازمه فى الطريق أثناء عودته ليحظى بنصيب أوفر من حديثه الذى بدأ يشعر أنه كالبلسم الشافى ٠٠ وقال له ليستزيد من حديثه ٠٠ فى الواقع هذه الزوجة مظلومة ومسكينة لأن زوجها شرير لا اخلاق له وهى على عكسه تماما ٠٠طيبة طاهرة ٠ فقال الناسك٠٠ لاعجب فى هذا فالمخلوقات كالمعادن تختلف باختلاف جوهر الأرواح ٠ فبعضها خير وبعضها شرير ، ويصل بعضها ببعض حلقات قد تنتهى بالخير وقد تنتهى بالشر ، أو تتعاقب الحلقات ما بين الخير والشر تحت تأثير تيارات جارفة خارجة عن ارادة الانسان فهو مزيج قد يكون واضح الاثر وقد لا يكون ٠٠ هو مزيج من الفضيلة والرذيلة تختلف معايير كل منهما

في نفس كل انسان . فالفضيلة عندك مثلا أوفر منى والرذيلة عندى أكثر منك .. فقاطعه الرجل .. معاذ الله .. معاذ الله .. انت معصوم بفضل ربى يا أبى .. فابتسم الناسك وكأنه أدرك ما يجول بذهن الرجل منذ سار معه .. المهم يا ولدى أن في التمازج أو التناكر حكمة آلهية قد يكون من الخير لصاحبها وللانسانية أو لا يكون . وقد يكون الخير من قبل نفسه أو من قبل غيره والله المتصرف فيما يريد وما لا يريد .. والانسان له طاقة خاصة من الخير ومن الشر قد يزيد أحد الجانبين على الآخر وقد يتوازنا فى العمل والانتاج . وهنا كان لابد للرجل أن يعود من حيث أتى ، فاستأذن الناسك شاكرا له رحابة صدره . وعاد الناسك الى كوخه وهو يفكر فى القوة الخفية التى تدنيه من الناس فى الوقت الذى هرب فيه من الناس سعيد بالاستغراق فى التفكير الآلهى والتسبيح الدائم .. وبينما كان فى استغراقه الروحى اذ سمع طرقا خفيفا على باب كوخه ، ولما هرع الى الخارج ليرى من الطارق عله يكون طالب حاجة كما تعود ولكنه رأى المرأة ذات السحر الفاتن والحسن الوفير الخلابة النظرات الحلوة البسمات التى قابلها منذ حين فى الطريق فبهت لمرآها ونظر اليها مشدوها لا يقوى على النطق . ولم تدعه الغانية فريسة للمباغتة اذ أسرعت قائلة ، بصوت منغم عذب متقطع الأنفاس وبلهجة منهوكة القوى من جراء جهد اعياء هويل : هل أجد عندكم مأوى حتى الصباح. ثم بكت مغمغمة : ان رياح الصحراء تحمل الى من المخاوف ما يبعث الرعدة فى صدرى ، يخيل الى أن وحشا يتبعنى ليفتك بى .. ولم يدعها تتم كلامها ، بل أشار اليها بيده وهو يفسح لها الطريق داخل كوخه شاعرا بأن ردها خائبة قد يعرضها لايذاء قطاع الطرق . وقال بصوت هادىء مستجمعا قواه : ادخلى يا ابنتى فى حراسة الله . ووقف هو على باب كوخه يسائل نفسه هل كان فى مقدوره أن يفعل غير ذلك ؟ فلم يجد جوابا غير ما فعل .. وعاد يسائل نفسه : وهل من دستور التقوى والصلاح الحيلولة بين المرأة وحمايتها ؟ أليس من فروض الايمان حماية المرأة اذا طلبت العون والحماية ؟ اذن لا غبار عليه .. ولا بد من حمايتها .. وشغل عنها بالتسبيح والاستغفار . ولو التفت اليها عند دخولها لرآها وهى تتمايل فى مشيتها كأن الأعاصير تناوئها . فلما استقرت وهدأت أنفاسها المذعورة كأنها كانت تجرى حقا لتهرب من مطاردة شرير أو مشاكس راحت ترقبه من وراء جفونها . فلما رأت نظره يقع عليها تنفست الصعداء وابتسمت ابتسامة الطمأنينة ، ولاح على وجهها بشر

شاع فى عينيهـــا نورا رسم على شفتيهـــا بسمة ساحرة ، واذا بهـا تبدو امرأة نادرة الجمال ســـــاحرة الى اقصى حد كأنها حلقت فتنـــــه القلوب والابصـــار · واغتـاظت عندما استرد نظره وظل واقفـا على عتبة كوخه ، ولعله كان يفكر هل يدخل ـ أم يظل قابعـــا كالكلب على الباب لحراستها ·· وعـاد ينظر اليها فى حذر ليراها هل غلبهـــا النعاس أم زالت مستيقظة ·· فالتقى البصران ، وخيل للمرأة انه غاب فى عينيها وخيل اليه انهـا غابت فى عينيه شاعرا أن الدم ارتفع حارا ملتهبـــا فى رأسه ، فاستعاذ كأن شـــيطانا رجيما يجذبه اليهـــا ، وراح يتمتم على سبحته ، ثم رد بصره عنها بعيدا ليستجمع زهده واســـتعلاءه عن مغريات المرأة وغمغم ببطء وصوت خفيض ·· معذرة يا ابنتى ـ هـــذا فراش ناسك زاهد · ونظرت اليه المرأة نظرة يكفى اغراؤها وســـحرها لتهبوط به من برجـــه النـــورانى الى حيث تجلس · فدنا ثم أحجم واستعاذ بالله · ولكن المرأة ادركت ما يجول بنفسه بحاستها النسـوية الخفية فعادت تنظر اليه فى استحياء معتدلة فى جلســتها وقد لفت جسمها بردائها فى تعفف كأنها تقول له ·· لا تخف اقترب · ثم أشارت له بيدها البضة كى يقترب منها · ودون ردد جلس قريبا منهـــا وقد غاب عقله فى ذهول احساسه فبدا كالتمثـــال الصامت ، وطال الصمت حتى ضـــجرت المرأة ، فتكلمت وكأن الدنيا بما فيها من فتنة وعذوبة ورقة تتكلم : عفوا يا أبتـــاه ·· لقد أزعجتك وأقلقت راحتك ·· أما فراش الزاهد هذا فهو أحب الى من الدمقس والحرير ·

وراحت تتحسس القش من تحتهـــا وحواليها ·· كأنهـــا تتلمس فراشا وثيرا غاليا ، ثم استلقت على ظهرها فى حركة ظاهرها الحيـــاء وباطنها الاغراء الفاتن ؛ محاولة اثارة حسه بفن اغرائها الساحر · وقام فى اثر صراع روحى بين روحها التى تحاول جهـــدها تنبيه أحاسيسه لأمر لا يعلمه الا الله·وبين روحه التى تغالب الاغراء بغض الطرف عنه والاستعاذة بالله والتمسك بايمانه العميق · ولكن المرأة مغرية عريقة فى الاغراء ·· لذلك صعب على الناسك، بعد المكابرة ، أن يحبس نظراته ويصد اغرائها فلم يلبث حتى غلبه شيطانها ·· فاذا به ينظر اليها شاعرا بأن الدم يجرى حارا فى شرايينه ، ويوشـك أن يبلغ رأســه ، فخاف وارتعد وانتفض كأنه أصيب بحمى طارئة وهم بالخروج هاربا منها كأنها عقرب يحاول لدغه ، وكانت تراقبه خفية فاستوقفتـــه قبل أن يغـادرها قائلة بصوت يشـبه الهمس المشوم : الى أين يا أبتاه ؟ فقـال فى رصـانة : ســأتركك يا ابنتى لتأخذى

راحتك .. اننى على موعد مع نجمة الزهرة . وابتسمت المرأة فى خبث قائلة .. لا أعرف نجمة من نجوم السينما بهذا الاسم . فابتسم وقال مشيرا الى السماء : أعنى هذه . اذا ظهرت فى السماء أصلى صلاة ما فاتنى لله فيما مضى من أيام صباى .. وتحول عنها ليخرج ، فهرعت اليه متكلفة الهلع ، مغمغمة بصوت حنون منوع الجرس .. أتتركنى وحدى يا أبى .. اننى أخاف ، فقد يدخل على وحش يفترسنى .. أتكره البقاء بجانبى يا أبتاه ؟ .. أترانى بغيضة الى هذا الحد ؟ .. ووضعت يدها على كتفه فى رجاء واسترحام مردفة .... اننى أتبرك بأنفاسك فلماذا تحرمنى من عطر الجنة يا أبى .. انظر الى .. انى ألمح فى عينيك نور السماء.. فأود لو تحولت الى ومضة من ومضات نظراتك الصافية . أبى لا تتركنى بحق الله ...

هنا تخاذل الناسك أمام صوتها العذب الرائق وحنانها الدافق الوفير ، وكان جاذبيتها شدته من أم رأسه فهوى تحت ارادتها وقال دون تردد .. سأمكث يا ابنتى فنامى .. نامى فى رعاية الله وعادت الى الفراش مستلقية عليه ، محاولة أن تظهر محاسن جسمها فتسى الناسك ورعه وتقواه وجلس بقربها يسألها ... أصدقينى كيف عرفت مكانى ؟ قالت .. اعتمدت على احساسى أجوس خلال المكان الذى لقيتك فيه حتى بلغت هنا بعد أن ولى النهار وطوانى الليل ، ولعلى لم أزعجك لأنى طرقت بابك ..

قال : وما الذى حدا بك الى ذلك .

قالت : لأطمئنك على الشاب الذى كلفتنى بالسعى للافراج عنه ولم أغادر الباشا الا بعد أن اتصل بجهة الاختصاص أمامى . واطمأن قلبى عندما وجدت الشاب فى الصباح عند خروجى من القصر ينتظر خروج الباشا ليشكره. وقد عرف الشاب من الحارس صلتى بالباشا .. لأنه لحق بى فى الطريق ، وتوسل الى أن أساعده بمطالبة الباشا كى يلحقه بأى عمل .. وتسكت المرأة لحظة كأنها تسترد خواطر غابت عنها ثم تستأنف حديثها ، ولا أكتمك يا أبى أن بى رغبة ملحة لخدمة هذا الشاب ، اذ أشعر نحوه بعطف عميق كأنه ابنى ... ثم تغالب دموعها .. لو عاش ابنى لكان فى مثل سنه .. بل أتصوره كأنه هو ... ملامحه .. صوته .. كل شىء فيه يخيل الى انه صورة مماثلة لولدى .. آه لو كنت أعرف أن ولدى حيا .. لقلت أنه هو ، وهنا قاطعها

ـاسك : وقد يحتمل أن يكون هو ، من يدر أن الاقدار تلعب فى الحياة
ـوارا فوق ظنون البشر . أو لم تسأليه عن اسمه واسم أبيه وأمه ؟
ـو فعلت لاستوحت بدل أن تتلاعب بك هاته الهواجس .

قالت : ليتنى سألت .. لقد أنســـانى موقفه الأليم التفكير فى
ـما .. ونظرت اليه نظرة حيرة وارتباك متأثرة بانفعالهـــا الخفى الذى
ـعل حسبما .. أتصارحه بما تخفيه أو لا تصارحه .. وأكسبها هـذا
ـعور الخائر صفة الخضوع والمسكنة .. فتحركت مشاعر الناســك
ـحيرة وأراد أن يقول لها شيئا . ولم تكد شـــفتاه تتحركان حتى مر
ـه بخاطره ، فخاف وارتجف واصطكت أسنانه كأن قشعريرة من البرد
ـرته بغتة فابتعد عنها وقد دمعت عيناه ليخفف ما ألم به من احســاس
ـمرير ..

ولمحت المرأة ملامحه تكسوها ظلال أحاسيسه وعراكه النفســانى
ـنظرت اليه نظرة اشفاق وحنان قائلة : كيف ترانى يا أبى ؟ أليس لمثلى
ـحق أن تكون سعيدة فى هذه الحياة ؟ وكان هذا السؤال كافيا لتركيز
ـفكره عليها ، فاتجه نحوها لينظر اليها من جديد نظرة تأمل عميق قائلا :
ـك رمز للابداع الآلهى يا ابنتى ، وليس فى الوجود أجدر منك للحظـوة
ـالسـعادة .. كأنك طيف حورية خرجت من الجنة لتضيف الى النعم
ـالتى اسبغها الله على الوجود نعمة رائعة . فابتسمت فى خفر لتستزيد
ـمن امتنانه وهى تقول أحقا ذلك يا أبى ؟ ... فى الواقع أن روحك هى التى
ـتضفى على كيانى الضعيف هذا السحر والجمال .. واقتربت منه
ـتضع رأســها فوق كتفه كأنها تركن الى حنان أبيها محاولة أن تشعره
ـبدفء صدرها لتأنس روحه اليها مغمغمة كأنها تخاطب نفسها ، كم أنت
ـحنون يا أبى .. لشد ما اشتهى هذا الحنان .. انه الحلم الذى استغرق
ـفيه أبدا ولا أريد أن أستيقظ منه ..

هنا نسى الناسك وجوده دون أن يدرى ، ونسى كل شىء فى الحياة
ـالا هذه المرأة .. نسى نفسه ونسى مسبحته فوقعت تحت قدميــه فلم
ـيرفعها من على الارض . وبدأ وميض غريب خاطف يلمع فى عينى المرأة
ـوارتسمت على وجهها ابتسامة معينة تحمل سرا دفينـــا تطوف كالظل
ـالســاحة .. وبدأت تتحــول من معنى الى معنى ... معنى يعيش
ـهنى فى نفسها ومعنى خارج عن نطاقها .. ان فرحة تطوف بقسماتها
ـتظهر بشرها كأنها كسبت ربحا هائلا .. ثم لا تلبث الفرحة أن تختفى

وراء احساس مجهول ترتجف له مفاصـــلها اثر تأثرها بخاطر مخيف يبعث البرودة فى أوصالها فتحس نها خدعت نفسها وأنهـــا لم تكسب شيئا بل خسرت كل شيء .

ثم يقع نظرها على الناسك فيتلاشى هذا الخاطر الأســـود ، ويشيع نور جديد لا عهد لها به ، نور قاهر طاغ يرد الطمأنينة الى صدرها فتهدأ ويعاودها احساسها السعيد بأنها قادرة على امتلاك كل قلب واجتياز أفق كل روح لتكون صاحبة الشـــأن والســـلطان .. ووقعت تحت سيطرة هذه الخواطر التى شغلتهـــا عن الناسك برهة فى حين شغل هو بالتأمل فى عظمة الخالق الأعظم التى تتجلى فى جمالها الساحر ولم يوقظه من غفوة التأمل والاستغراق فى التفكير غير صوتها وهى تقول له .. حدثنى يا أبى .. كيف ترانى .. وما الذى يطالعه حسك اللماح من وراء قضبان صدرى .. قالت ذلك دون تفكير اذ تملكها شعور خوف طارىء ، شعور الخوف من افتضاح أمرها والسبب الحقيقى لمجيئها .. وهل تراه صدق ما قالته ؟ .. ولم يتكلم الناسك وظل محدقا فيهـــا فعادت تقول .. ان روحى تشعر بوحشـــة هائلة .. ألا تؤنسها بحديثك على الأقل ؟ ...

ولم ير الناسك غضاضة فى ايناسها بالتحدث اليها فقـــال :

أى حديث تريدين أن أحدثك اياه يا ابنتى ؟ .. أنا لا أعرف غير التحدث عن الله وعظمته وقدرته ـ تلك القدرة التى تتجلى فى جمال كل شيء .. وتتجسم عظيمة هائلة فيك .. وسـكت لينظر فى عينيهـا نظرة اعجاب وفراسة .

طربت المرأة لهذا الاطراء الفريد ، فابتسمت بسمة رضا قائلة : وهل فى الوجود أجمل من هذا ؟ هل هنـــاك متع وألذ من الحديث عن الله ؟ .. ان لذة الحديث عنه أشهى مذاقا من كل ما يمكن أن يحلم به متذوق للجمال ويتمنـــاه .. فحدثنى يا أبى ... حدثنى عن الله وبدا الناسك يرتاح لهـــا فقال : ولماذا لا تحدثينى أنت يا ابنتى ؟ ونظر اليها نظرة ايناس وانتعاش روحى مســـتطردا ، حدثينى حديث الحيـــاة التى تنتمى اليك أو تنتمى اليها .. كلاكما صورة للوجود الحى .. النابض بقلب الخلود .

وتنبهت حاسيسه النائمة فى أعمق أعمـــاقه منذ ترك حيـــا الآدميين المعلقين بخيوط مشاعرهم بالأرض ، ونظر اليها فى نهم وما كا

يستوعب فتنتها حتى أرخى جفونه وأطرق وجهه وابتعد عنها وفه ملكته رجفة كأن عصا من النار لفحته وتمتم ... لا ... لا ووضع وجهه بين يديه ليخفى دموعه ويقاوم انفعاله الداخلى .

وأدركت بفطرتها النسوية مبعث انفعاله ، فعطفت عليه عطفا كبير وأقتربت منه حانية ، وقد أحست بشعور لم يمسها من قبل .. شعور فيه عنف ، وفيه قوة ولطف وحنان .... شعور طرق وجدانها فى التو جديدا .. فظهر خواطرها من السوء ، وأخرج روحها من محبس نزعات الشيطان فباتت شفافة ظاهرة ، ونسيت كل ما كانت تخفيه فى نفسها من رغبات وآمال ، ومالت عليه حانية مرددة .. أبى ، بل سيدى يقين نها تقبض على رأس ولى ، فخشعت وصفت نفسها وتطهرت من يقين انها تقبض على رأس ولى فخشعت وصفت نفسها وتطهرت من الاثم والاتجاه نحو السوء .

خفق قلبها لأول مرة فى حياتها خفقة قوية ايقظت ضميرها النائم وكأنه كان غائبا ثم عاد فعاد معه وقار الأنثى العفة الشريفة ، وتلاشى استهتار الأنثى الضالة ، وعادت تقول بصوت هادىء محتشم تنم نبراته عن الصدق واليقين والحب الأكيد : سيدى مولاى ... أتقبلنى خادمة لك أعيش معك ؟ .. وكأنها صوبت الى صدره سهما انطق وجدانه فقال فى تحسر ومرارة : لقد خلقت يا ابنتى لتكونى سيدة لا خادمة ، وسكت ليخفى حزنه وهلعه ، ثم استطرد : انك امرأة ككل النساء يحمل كأسك المغرى السم الزعاف .

وأدركت ما يجول فى رأسه ، وظننته درك مرماها فركعت عند قدميه ، ووضعت رأسها فى حنان فوق ركبتيه ، وقالت بصوت تنم نبراته عن الصدق الاكيد : لا .. لا لن يكون فى كأسى غير الترياق . اطمئن . قرب نظرة واحدة تطهر النفس كأنها شعاع من اشعاعات النور الآلهى تغسل الأثم وتمحوه فيغدو طاهرا .. ورب كلمة عفة صادقة تخلق من الفضيلة ما يعجز عن خلقه كبار المربين وأقوى الوعاظ المرشدين . أعاهدك يا سيدى أن كون طاهرة كالطهر ، نقية كالنقاء ، صادقة كالصدق . .. صدقنى .. ودمعت عيناها ، فاشتم من انفاسها رائحة الصدق . ولما مد يده ليجفف دموعها لمس حرارة اليقين .. فصدق وأدرك أن عواطفها لا يشوبها كذب أو التواء .. واندفع يقبض على يدها فى حرارة كأنه يتبرك بيد قديسة وقال : لا أظننى مخدوعا ومر بأصابعه فى رفق على يدها كأنه يتحسسها ليتأكد من أنها حقيقة لا خيال . ثم استطرد

فى الحديث : انك حقيقة .. حقيقة ثابتـــــة .. بروحك وكيانك .. وحقيقة ثابتة بايمانك ... ثم أطرق مناجيا نفسه : لم جئت يا ابنتى ؟ ولم فتحت لى باب الحياة من جديد ، لقد كنت غلقته من زمن بعيـــد ؟ ونظر اليها بمعنى تكلمى ، فلم تتكلم ، وأسندت رأسها الذى يحمل فى تلافيفه خواطر بعضها مر بذهنه وبعضها يجهله .. على أنهـــا رغم ذلك غابت فى دنياه حقا ، وذابت مشاعرها فى عالم روحه ، ولم تعد تشتم من هذا العالم غير رائحة أنفاس عفة لا تحمل من الخبث والدهاء والكذب أى أثر .

وبعد صمت قصير فى مدته ، طويل فى عمقه ، حيث غاب كل منهما فى رحلته الروحية الممتعة ، التفتت اليه لتسأله ، فى رقة وحنان : لم أغلقت باب دنيا الحياة يا سيدى وما زلت تحمل من الرجولة قوتها ومن الشباب وسامته ؟ قال .. اذا استطعت ان تفهمى ما قاله سليمان (كل شىء باطل الا قبض الريح) فهمت أيضا لماذا طلقت الحياة دون رجعة .

قالت : أعتقد ن سليمان قال حكمته لأمر يوائم زمنـــــه وعصره والله خلق العصـــــور وجعل لكل عصر حاجاته والتزاماته . فمثلا كانت وسائل النقل فيما مضى هى المراكب فى البحار والجمال فى الصـــــحراء وأصبحت اليوم الطائرات . وكما يقولون انهم يحاولون اختراع ما يفوق الصوت فى سرعته ... فأنت مخطىء ياســـيدى اذا زعمت الخير فى العزلة بعيدا عن الحياة لاعتقادك أن كل شىء باطل . ولماذا لا تجمع بين الدنيا والدين كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم ،) اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ؟ هذه هى فلسفة الحياة وواجب الأحياء .. أتنكر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم يقينا بأن كل شىء فى الحياة باطل زائف ولكن لابد من العمل لتستقيم الحياة وتحلو وتطيب حفظا لسنة التطور .

وهنا قاطعها ، وهو يربت على خدها فى رفق واعجاب : يا ابنتى الفيلسوفة لا تنسى أن مشيئة الله أيضا هى التى تسير المجاهدين وتقعد بالزاهدين . ألا يصح ن يكون للمتقاعدين الذين يتراءون لك كســـــالى خاملين أعمال عظيمة هائلة ؟ ولكن فى مظهر آخر غير ما تعارف عليه الناس من مظاهر . أفهم أن تكون حيـــــاة الانسان التى يقضيها فى الدنيـــــا عملا ونضالا فى وضوح أو غير وضوح ، وبأسلوب معروف و غير معروف والمهم أيضا ان يكون للانسان رسالة سليمة نافعة ، وقيـــــاس تقديرها

للخالق لا للمخلوق . فقد يصح أن أعمل عملا يبدو للناس شريفا عظيما وهو فى الواقع دنس لأن أهدافه ضارة فالحكم اذن لله وحده .

فقاطعته .. طبعا هذا يرجع لاستعداد المخلوق وهدفه فى الحياة .. قال : أبدا ، نخطىء اذا قطعنا بذلك . فكم من موهوب عاش تعسا لانه لم يجد سبيلا لا براز مواهبه . بل قولى ان طبيعة الانسان الأصيلة تنتهى به كما بدت به . ولا صلة للحوادث التى تقع منه فهناك أقدار باطنة لا تدرك ، لكنها تدفعنا لعمل ما يجب ومالا يجب . واقدار ظاهرة تتمشى مع قوة أو ضعف عقولنا ومشاعرنا ولنا قوة السلطان عليها وهى ما تعارف الناس على تسميتها باسم مقتضيات الأحوال . فمثلا اذا فرض وولد انسان من أبوين كريمين ، وكان الشرف والكرم أبرز صفات تكوينه .. ثم دفعته الظروف القاسية الى الاستهتار مثلا واقتراف أى اثم أو جريمة .. ثقى بأن فضائله الكامنة تظل فى حرب دائم مع رذائله المكتسبة ، ولابد من انتصار فضائله الأصيلة بعد أمد قصير أو طويل .. قد يكون فى منتصف شوط حياته ، وقد يكون قبيل النهاية ، وقد يكون عند نهاية المطاف .. هى معركة دائرة بين الخير والشر تنتهى بانتصار الأصل الكامن فيه . اذا عرفت ذلك لا تتعبى نفسك فى تعرف خفايا الناس ، لانه لا يمكن لكائن مهما اوتى من الذكاء والخبرة ن يعرف حقيقة انسان ما بقدر ما وضح من سلوكه . وسكت ليتنفس الصعداء وهو يهز رأسه كأنه يبعد عن ذهنه خواطر غير مريحة . وانتهزت فرصة سكوته فقالت : أتسمح لى أن أسألك ؟ . لماذا اخترت هذا القفر الموحش سكنا ومقاما ؟ .. ولماذا آثرت العزلة كأن بينك وبين العراء ألفة وغراما ؟

فنظر اليها نظرة الفاحص المحقق قائلا : أخشى أن تكونى موفدة من قبل الشيطان لتعيدينى الى دنيا الضلال . فابتسمت لتخفف من سوء ظنه .. وقالت : وهل أنت ضعيف ا لى هذا الحد ؟ اتخاف ؟ ان من يعرض حياته لحيوانات الصحراء الضارية واللصوص المبعثرين كالجراد لا ظنه يخاف منى أو على الأصح يتأثر بى . قال ، وهو يهز رأسه كأن الشك يراوده : كان يجب أن تفهمى من كلامى أننى أسير فى طريق الآخرة ، وقد خلعت ثوب الدنيا الباطلة بعد أن لعبث الدور المقدر على . وأخيرا بعت نفسى لله بعد ن اشتريت ايمانى بما كنت أملك .

فقاطعته ... اراك ترتاب فى ؟ وأحب ان اؤكد لك ان الله أرسلنى اليك على الصورة التى تريدها خادمة أو أختا أو زوجة .. قال فى هدوء : يا ابنتى ان ايمانى بحقيقة المرة لا يتغير .. انهما